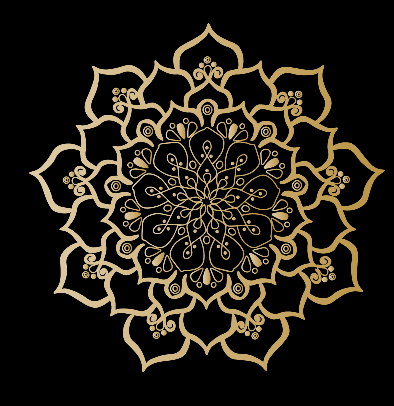
الموسوعة القرآنية

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم



تأليف

عصام الدين عبد الحميد الهنامي



بيانات النشرة

عنوان الكتاب: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

المؤلف: عصام الدين عبد الحميد الهنامي.

تاريخ النشرة: ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م.

الإخراج الفني: مركز فائق للخدمات العلمية.



مركز فائق للخدمات العلمية

التدقيق اللغوي - الإخراج الفني للكتب والرسائل - نسخ المخطوطات

- التفريغ الصوتي - تخريج الأحاديث والآثار - عمل الملخصات الدراسية -

تحويل pdf إلى word - الترجمة من الإنجليزية إلى العربية.





فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

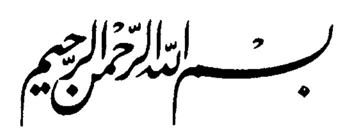
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة





مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد،،،

فهذا هو الجزء الخامس من الموسوعة القرآنية التى حرصت على أن تتضمن موضوعات القرآن فتشرح آياتها، وتعلق على ما يقتضى المقام التعليق عليه.

وقد خصصت هذا الجزء للآيات القرآنية المتصلة بالكون، وما بثه الله فيه من كائنات جامدة وحية. فأتحدث فيه عن خلق السموات والأرض، والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار، والبحار والأنهار والجبال، والظواهر الطبيعية من رياح وعواصف وصواعق وبرق ورعد ومطر، كما أتحدث عن خلق الإنسان، ومراحل تطوره فى الرحم، وبعد الولادة، وكذلك أتحدث عن الحيوان والنبات. وأبين فضل الله على عباده فى خلق كل ما فى الكون، وتسخيره لهم، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (الجاثية١٣) وغير ذلك من الآيات التى سيرد الحديث عنها فى ثنايا الكتاب.

وسأتابع المنهج نفسه الذى اتبعته فى الكتب السابقة من الاعتماد الكلى على

القرآن الكريم. فأذكر الآيات التى تتناول الموضوع الذى أعالجه، وإذا كثرت الآيات كثرة مستفيضة أكتفى بأكثرها مما له دلالة وافية على المراد.

وقد كان الحديث عن الكون والكائنات فرصة للحديث عن لون من ألوان إعجاز القرآن الكريم لم يتناوله الأقدمون لعدم اتضاحه لهم، واكتفوا بالحديث عن الإعجاز البلاغى. ولكن (الكشوف العلمية) فى عصرنا أوضحت هذا اللون من الإعجاز وهو الإعجاز العلمى.

لقد عُقِدت مؤتمرات للإعجاز العلمى للقرآن الكريم حضرها كبار العلماء من شتى أنحاء العالم فى كل التخصصات، وتناولوا أحدث ما وصل إليه العلماء من نظريات علمية أو حقائق كونية وعندما اطلع علماء الغرب على معانى بعض الآيات التى تليت فى هذه المؤتمرات مما يتصل بنظرياتهم دهشوا، بل ذهلوا لأن يُكْشَف عن هذه الحقائق منذ قرون طويلة ويكشفها رجل أمى فى بيئة بدوية. وأعلن كثير منهم أن هذه القول لا يمكن أن يكون من قول بشر، بل أعلن بعضهم إسلامه.

وأود أن أقرر بمناسبة موافقة بعض آيات القرآن لبعض الحقائق الكونية والنظريات العلمية أن القرآن ليس كتابَ نظريات علمية، ولم يجئ ليكون عِلماً تجريبيّاً كذلك. وإنما هو منهج للحياة كلها، ومنهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق فى حدوده، ولتقويم المجتمع ليسمح للعقل بالعمل والانطلاق، وقد يشير القرآن أحياناً إلى حقائق كونية. فنؤمن بهذه الحقيقة لأنها وردت فى القرآن. ونتقبل النظريات العلمية التى لا تخالف هذه الحقيقة المجملة فى القرآن. ولكننا لا نجرى بالنص القرآنى وراء أية نظرية علمية، ولا نطلب تصديقاً للقرآن فى نظريات البشر مهما بلغ علمهم فهو عندنا مصدق لا يحتاج إلى توكيد. وخلاصة القول: أن النظرية

العلمية- إذا ورد ما يشير إليها فى القرآن- نرحب بها لأن القرآن أتى بما يشير إليها وقبل ألف وأربعمائة سنة.

وهذا ليس رأيى وحدى بل رأي بعض مفسري القرآن المحدثين وعلى رأسهم المرحوم سيد قطب فى ظلال القرآن.

والله أسأل أن ينفع بكتابى، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم.

وهو الموفق والمستعان نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

الكَـــوْن

هذا الكون الذى نعيش فى زاوية منه لا تساوى واحداً من آلاف الملايين من مساحته كون هائل الضخامة، وعظيم مدى الاتساع، شاسعة أرجاؤه بحيث لا يمكن لمتخيل أن يتخيل حدوده، أو يحيط عقله بمقادير أبعاده. ويكفى أن نعرف أن العلماء بأجهزتهم العلمية التى بلغت أبعد مدى فى الدِّقة، وأرفع مستوى فى الكشف قدروا أن الكون يحتوى على مائة وخمسة وعشرين ألف مليون مجرة. والمجرة دائرة هائلة المساحة تحتوى على ملايين الشموس، كل شمس منها لها كواكب تدور فى فلكها. وكل كوكب له تابع أو أكثر يدور حوله، ولا تَقِلُّ كل شمس منها عن شمسنا، وقد تزيد عنها كثيراً، وقد قدروا عدد الشموس فى الكون بأكثر من عشرة آلاف مليون مليون مليون شمس، أى واحد وأمامه ثمانية وعشرون صفراً. وهذا التقدير قابل للزيادة، وليس قابلا للنقص.

وهذا الكون دائم التمدد والاتساع حتى قال بعض العلماء إننا لو افترضنا أن هناك طائرة تسير بسرعة مائة ألف سنة ضوئية فى الساعة أى المسافة التى يقطعها الضوء فى مائة ألف سنة.

والضوء يقطع فى الثانية الواحدة مائة وستة وثمانين ألف ميل. فما بالك فى الدقيقة، ثم فى الساعة، ثم فى اليوم، ثم فى السنة، ثم فى مائة ألف سنة، هذا رقم لا يكاد يدركه الخيال. هذه الطائرة المفترضة فى الخيال فقط إذا حاولت أن تجوب الكون لتصل إلى نهايته لا يمكن أن تصل إلى نهايته، لأن الكون دائم التمدد والاتساع، وقد

أشار الله إلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ[1] وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧).

ولكن الله سبحانه أشفق على عقول عباده أن تزيغ أو تضل إذا ذكر لهم هذه الحقائق الكونية فى زمن نزول القرآن الكريم حينما كان العلم يدرج فى مدارج طفولته، والعقل البشرى مازال فى مهده، ولكنه أشار إشارات إلى بعض ما فى الكون، وكان هدفه منها بيان ما ينفع الناس منها، وما فيها من دلائل قدرة الله، وتأكيد ربوبيته ووحدانيته.

---

(١) أى بقوة.

قصة الخَلْق

السماوات والأرض:

يذكر الله سبحانه أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام. وقد تكرر هذا الأمر فى عدة آيات من عدة سور. ففى سورة الأعراف يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۝﴾ (الأعراف: ٥٤) وفى سورة يونس تكرر نفس المعنى بنفس التعبير﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۝﴾ (يونس: ٣)، وفى سورة هود اختلف التعبير قليلاً وأضاف إضافة جديدة؛ فقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (هود: ٧) فقد بين أن العرش الذى استوى عليه فى الآيتين السابقتين كان على الماء. ونفهم من هذا أن الماء خُلق قبل السموات والأرض. وفى سورة الفرقان قال تعالى :﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٩)، وقد بينت هذه الآية أن الخلق لم يقتصر على السموات والأرض، بل شمل كل ما يحويانه من نجوم وأقمار وكواكب وجبال وبحار وأنهار. نفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وكذلك تكررت هذه العبارة فى سورة السجدة، فقد قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (السجدة: ٤).

ولكن الله سبحانه فى سورة فصلت يوزع أيام الخلق على الأرض والسماء فقد خلق الأرض فى يومين، ثم خلق الجبال، وقدر فى الأرض الأقوات من بحار وأنهار وحيوان ونبات ليعيش عليها الذين سيسكنون هذه الأرض فى يومين آخرين فصار خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام تامة لا تزيد ولا تنقص. وبعد هذه الأيام الأربعة عمد إلى السماء وكانت دخاناً فأمرها هى والأرض أن تصيرا إلى ما هما عليه فى علمه من نظام وقانون طائعتين أو مكرهتين. فأطاعتا. وتم خلق السموات فى يومين وقد جاء ذكر هذا التوزيع فى معرض توبيخ المشركين لعبادتهم مع الله غيره. وبين الله لهم أنه أصدر أمره إلى السماء والأرض أن تصيرا إلى ما أراده لهما طائعتين أو كارهتين. ولكن السموات والأرض وهما جماد خضعتا لأمر الله، وأعلنتا انقيادهما لأمره طائعتين. فكيف يكفر به الخلائق العقلاء، وهم أقل حجما، وأصغر شأنا من السموات والأرض. بحيث لا يمكن مقارنتهم بهما؟

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ[1] سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت: ٩ - ١٢).

وأتوقف قليلاً عند هذه الإشارة المعجزة التى وقف أمامها العلماء فى حيرة وعجب. كيف تأتّى لرجل أمي فى أمة بدوية أن يعرف هذه الحقيقة منذ أربعة عشر قرناً، وهم- بكل رقيهم وتقدمهم العلمى- لم يعرفوها إلا منذ سنين. ولكنه وحى

---

(١) تامة لا تزيد ولا تنقص.

السماء. ففى الإعجاز العلمى للقرآن- عرضت هذه الآية: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ على العلماء. فلما سمعها البروفوسير بوشيدى كوزاى مدير مرصد طوكيو قال: «إن العلم لم يصل إلا منذ فترة بسيطة جدّاً إلى أن السماء كانت دخاناً، وقد أصبح شيئاً مشهوراً ومرئيّاً الآن، بعد إطلاق سفن الفضاء والأقمار الصناعية...» وعرض صوراً التقطت لنجم فى السماء، وهو يتكون، وقد بدا كتلة من الدخان فى وسطها تكون الجزء المضىء من النجم وحوله الدخان، وتحيط بالدخان حافة حمراء دليل على ارتفاع درجة الحرارة.

وقال: «لقد كنا نعتقد منذ سنوات فقط أن السماء كانت ضباباً، ولكننا عرفنا الآن بعد التقدم العلمى بأنها ليست ضباباً، ولكنها دخان، لأن الضباب خامد وبارد، والدخان حار وفيه حركة، وهذا يدل على أن السماء كانت دخاناً...» وقال: «إننى متأثر جدا باكتشاف هذه الحقيقة فى القرآن»[١].

وتستمر الآيات فى الحديث عن خلق السموات والأرض فى ستة أيام فيقول الله تعالى فى سورة «ق»﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (ق: ٣٨) وقد أضافت الآية شيئاً جديداً، وهو نفى التعب عن الله بعد خلق الكون، ردّاً على اليهود الذين قالوا: إن الله خلق الخلق فى ستة أيام، واستراح فى اليوم السابع.

وفى سورة الحديد: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد: ٤).

---

(١) الشيخ الشعراوى: الأدلة المادية على وجود الله تعالى.

ونلاحظ أن كل الآيات التى ذكرت خلق السموات والأرض فى ستة أيام، أعقبت ذلك بأن الله استوى بعد ذلك على العرش، ما عدا آيتين: آية «هود» التى ذكرت موقع العرش على الماء، وآية « فصلت» التى لم تذكر العرش. ولعل حديث الله عن الاستواء على العرش عقب الحديث عن الخلق ليبين للبشر عظمة ملكوت الله الذى يليق بجلاله، ويعبر عن سلطانه، وإن كان فى الحقيقة ليس فى حاجة إلى بذل جهد فى الخلق ثم استواء بعده على العرش، فكل خلق الله يصدر عن إرادة الله المكتملة فى كلمة واحدة هى: «كن» كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس: ٨٢).

بقيت كلمة عن المراد بالأيام الستة. هل المراد اليوم الزمنى الذى نعرفه الذى يمثل دورة للأرض حول الشمس، أى أربعا وعشرين ساعة؟ وبهذا قالت التوراة فقد حددت أسماء الأيام، فهى تبدأ بالأحد وتنتهى بالجمعة، ولكنى أظن- والله أعلم- أن اليوم بهذا المعنى ليس هو المراد فالأرض لم تكن خُلقت بعد، وكذلك الشمس كما أن الله أنبأنا أن اليوم يختلف طوله عنده عن طوله فى حسابنا فقد يكون ألف سنة، كما قال تعالى فى سورة الحج: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج: ٤٧) وفى سورة السجدة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة:٥)، كما قال تعالى فى سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج:٤)

وإذا كان اليوم عند الله ليس كأيامنا، وأنه قد يكون ألف سنة أو خمسين ألف سنة، فلا مانع أن تكون هناك أيام أطول من هذا كثيراً فيكون اليوم مليون سنة، أو

عدة ملايين. ولا مانع أن يكون الخلق تم فى مراحل تبلغ الملايين من السنين. كما تتحدث بعض النظريات العلمية عن ذلك. ولست أريد بهذا القول أن أخضع القرآن للنظريات العلمية. ولكنى أريد أن أبين أن القرآن لا يصادمها، فقد تكون صحيحة، وقد تكون خاطئة، فالقرآن لا يثبت ولا ينفى.

تماسك أجزاء الكون وتضامها قبل الخلق:

يذكر الله سبحانه أن السموات فى الأرض كانتا فى أول الأمر منضمة أجزاء بعضها إلى بعض فى كتلة واحدة. ففتق الله هذه الكتلة، وفصل بعضها عن بعض فكانت السماء وكانت الأرض، وكان ما بينهما من نجوم وكواكب وأقمار قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠).

وهذا لون من الإعجاز العلمى للقرآن فقد توصل العلماء حديثا إلى هذه الفكرة العلمية الجديدة عن الكون من خلال أبحاثهم ومشاهداتهم. وهى أن المادة كانت جامدة وساكنة فى أول الأمر، وكانت فى صورة غاز ساخن كثيف ومتماسك. وقد حدث انفجار شديد فى هذه المادة قبل خمسة ملايين مليون سنة فبدأت المادة تتمدد وتتباعد أطرافها[1].

ويذكر الشيخ الشعراوى[2]، أن معنى هذه الآية عُرض على مؤتمر الإعجاز القرآنى فى السعودية على الدكتور الفريد كرونر من أشهر علماء العالم فى الجيولوجيا وعندما قرأ المعنى أخذ يصيح: مستحيل يستحيل أن تكون هذه الحقائق قد ذكرت فى أى كتاب منذ أربعة عشر قرنا. إننا لن نصل إلى هذه الحقيقة العلمية إلا منذ سنوات،

---

(١) الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان ص ١٢٦.

(٢) الأدلة المادية على وجود الله ص ١٢٥.

وباستخدام وسائل علمية متقدمة جدّاً، وبعد دراسات معقدة طويلة خاصة بعلم الطبيعة النووية، والأصل الواحد للكون لا يمكن أن يكون قد توصل إليه بشر منذ ألف وأربعمائة سنة. ولكن الوسائل العلمية الحديثة الآن فى وضع تستطيع أن تثبت ما قال محمد صلى الله عليه وسلم منذ ألف وأربعمائة سنة.

وقد صعد الإنسان إلى القمر، ومشى فوق سطحه، وجاء بعينات من الصخور التى على السطح، ومن الصخور الموجودة تحت السطح، وعادوا بها إلى الأرض. وإذا بهم يكتشفون أن سطح القمر مكون من نفس عناصر سطح الأرض. وأن صخور القمر فى تركيباتها هى نفس صخور الأرض وأنهما من أصل واحد.

الله لم يخلق السماوات والأرض عبثًا:

وردت عدة آيات فى القرآن الكريم تقرر أن الله عندما خلق السموات والأرض لم يكن ذلك عبثاً أو لهوًا أو باطلاً بل كان لحكمة وبالحق.

ففى سورة الأنعام يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ (الأنعام: ٧٣) وفى سورة إبراهيم يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ (إبراهيم: ١٩) وفى سورة الحِجْر﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ (الحِجْر:٨٥) وفى سورة النحل: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ (النحل:٣) وفى سورة الأنبياء: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ (الأنبياء: ١٦) وفى سورة العنكبوت: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (العنكبوت:٤٤) وفى

سورة الروم: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ (الروم: ٨) وفى سورة ص: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) ﴾ (ص: ٢٧) وفى سورة الزمر: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) ﴾ (الزمر: ٥) وفى سورة الدخان: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ (الدخان: ٣٨) وفى سورة الجاثية: ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) ﴾ (الجاثية: ٢٢) وفى سورة الأحقاف: ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) ﴾ (الأحقاف: ٣) وأخيراً فى سورة التغابن: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (التغابن: ٣).

فهذا التكرار الكثير لهذا المعنى إنما جاء ليلفت أنظار البشر إلى أن يتدبروا ويتأملوا فى هذا الكون البديع العظيم، كى يصلوا إلى أن الله الذى أبدع هذا الكون هو الواحد القادر المستحق للعبادة، وأن الذى خلق هذا الكون قادر على أن يبعثهم بعد موتهم فيحاسبهم على ما عملوا من خير أو شر، وأن خالق هذا الكون لا يمكن أن يكون مراده منه هو هذه الحياة الدنيا وحدها.

خلق السماوات والأرض دليل على البعث:

ذكر الله عدة آيات تلفت أنظار البشر إلى أن بعثهم ليس أمراً معجزاً لله، ويكفى دليلاً على قدرته على إحيائهم بعد موتهم تأملهم فى خلق السموات والأرض. فقال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ

مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ (الإسراء: ٩٩)، وقال تعالى فى سورة يس: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾(يس: ٨١) وفى سورة الأحقاف يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأحقاف: ٣٣).

ولذلك دعا الله الناس أن يتأملوا فى ملكوت السموات والأرض ليقروا بعظمة الله ووحدانيته وقدرته على إحياء الموتى وبعثهم.

فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٥) وبين لهم أن خلق السموات والأرض أضخم وأعظم من خلق الناس: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (غافر: ٥٧) والمراد بالعلم هنا النتيجة التى يؤدى إليها، وهى الإقرار بربوبية الله ووحدانيته، والاعتراف بالبعث. وإلا فالناس جميعاً يعلمون هذه الحقيقة، وهى أن السموات والأرض أكبر من خلق الناس.

ولكن المؤمنين يعلمون هذه الحقيقة، ويقرون بها، ويعملون طبعاً لها فيجدون فيها الدليل على قدرة الله وعظمته، كما قال تعالى فى سورة الجاثية: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (الجاثية: ٣).

وقد أثنى الله تعالى على من يتفكر فى خلق السموات والأرض، ويعترف بأن الله لم يخلقها عبثاً، ويصفهم بأنهم أصحاب العقول الراجحة فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ

قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران: ١٩٠ – ١٩١) .

وقد ذكر الله أن معجزاته الدالة على قدرته وربوبيته أن خلق السموات والأرض، ونشر فيهما كثيراً من الكائنات الحية التى تدب فوقها، وهو قادر على أن يجمعهم إليه جميعاً متى شاء؛ لأنه قادر على كل شيء.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الشورى:٢٩).

ويعلق الدكتور جمال الدين الفندى على هذه الآية بأن كلمة (بث) هنا تشير إلى أن الحياة هنا ظاهرة كونية لا تقتصر على الأرض وحدها، وإنها تظهر بين الفينة والفينة حيثما تلائم البيئة الطبيعية نشوء الحياة وتطورها وارتقائها إلى ما شاء الله. أما الجمع الذى تشير إليه الآية الكريمة فليس يعنى يوم القيامة كما تقول بعض التفاسير ولكن سيتم الجمع بسلطان العلم بصورة، أو بعدة صور عندما يشاء الله تعالى. ومن تلك الصور الاتصال على متن أمواج الأثير عبر مسافات الفضاء الشاسعة.

وقد تحدى الله سبحانه الجن والإنس أن يستطيعوا الخروج من أقطار السموات والأرض، ويقرر أنه لن يمكنهم ذلك إلا بسلطان أى بقوة خارقة. وأنهم لو حاولوا ذلك فسترسل عليهم ألسنة اللهب والنحاس المذاب من كل ناحية. قال تعالى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الرحمن: ٣٣ – ٣٥).

ويرى الدكتور الفندى[١] أن المراد بالسلطان سلطان العلم. ويفسر شواظ النار والنحاس بأنهم لو حاولوا خرق الأرض مارين بمركزها فينبثق باطنها ناراً على هيئة بركان مخيف، وأما الخروج من أقطار السموات فسيحترقون بلهب النجوم والشهب.

الناموس الإلهي في حفظ السماوات والأرض:

إن إلْفنا للأشياء التى نشاهدها منذ أن تنسمنا نسمات الحياة، ورأينا مظاهرها ومشاهدها، يصرف الكثيرين عن التفكير فى هذا الكون العجيب، واستقرار عناصره. فهذه السماء الشاهقة، وما انتثر فيها من نجوم وكواكب. وما الذى يحفظها أن تسقط على الأرض؟ لا أظن أن كثيراً من الناس فكر فى مثل هذا الاحتمال، أو سأل نفسه هذا السؤال. ولكن الله أجاب عنه فى قوله تعالى فى سورة الحج: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۝﴾ (الحج:٦٥)

فالله هو الذى يحفظ السماء من السقوط على الأرض. ولكن كيف يحفظها الله من السقوط؟ لم يهتد الإنسان إلى جواب السؤال إلا منذ قرون قليلة عندما اكتشف نيوتن قانون الجاذبية، ذلك القانون الذى يمسك كل الكائنات السابحة فى الفضاء من أن تسقط أو يصطدم بعضها ببعض.

ولكن فى الآية ما يشير إلى أن السماء ستقع على الأرض عندما يأذن الله للكون أن يختل نظامه، ويلغى عمل قانون الجاذبية الذى خلقه هو، وذلك عند قيام الساعة.

وقريب من معنى هذه الآية ما ورد فى سورة فاطر فى قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ[٢] أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا

---

(١) الكون بين العلم والدين ص ٥٧.

(٢) إنْ هنا بمعنى ما النافية.

غَفُورًا ﴿٤١﴾ (فاطر: ٤١) فهذه الآية تقرر أن الله هو الذى يحفظ السماوات والأرض من أن تسقطا فى الفضاء وتذوبا فيه ولو أن إرادته اقتضت أن يحدث ذلك فليس بوسع كائن من كان أن يمسكهما عن الزوال والضياع.

وقد لفت الله أنظار الناس إلى أن السموات قائمة بقدرته وحدها دون أية أعمدة مرئية لهم عندها فقال تعالى فى سورة الرعد: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴿٢﴾ ﴾ (الرعد: ٢) ونلاحظ وصف العمد بأنهم لا يرونها قد تكون غير موجودة فعلا وقد تكون موجودة ولكنهم لا يرونها.

السماوات

تحدثت فى الفصل السابق عن السماوات والأرض معاً وأريد أن أفرد لكل منهما فصلا يتناول ما ورد بشأن كل منهما منفرداً فى القرآن الكريم.

وأول ما نلاحظه أن القرآن الكريم ذكر أن السماوات سَبْعٌ وقد جاء ذلك فى آيات كثيرة مر ذكر بعضها فى الفصل السابق كقوله تعالى فى سورة فصلت: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ ﴿١٢﴾ ﴾ (فصلت:١٢) أى وضع لكل سماء منها نظامها الذى تسير عليه.

وهذه طائفة أخرى من الآيات تقرر هذه الحقيقة. ففى سورة البقرة يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ ﴿٢٩﴾ ﴾ (البقرة:٢٩) ويفهم من هذه الآية أن السماء كانت كتلة واحدة متضامة، ففصل الله بعضها عن بعض وجعلها سبع سموات، كما فصل السماويات عن الأرض كما قررته الآية التى ذكرتها فى الفصل السابق: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾

وفى سورة الإسراء يقول تعالى﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ الإسراء: ٤٤.

وفى سورة (المؤمنون) يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ المؤمنون: ١٧ والمراد بالطرائق السموات. وفى نفس السورة يقول تعالى ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ المؤمنون: ٨٦. ويقول تعالى فى

سورة الطلاق: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ الطلاق: ١٢ وكذلك فى سورة الملك: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ الملك: ٣ ومثلها فى سورة نوح وهو يلفت أنظار قومه إلى عظمة الله فى خلقه: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ نوح: ١٥ والمراد بالطباق أنها طبقات بعضها فوق بعض.

وأقف وقفة قصيرة أمام هذه السماوات السبع. ما المراد بها؟ هل المراد أنها سبع مدارات فلكية، أو سبع مجرات رئيسة تنبثق منها كل المجرات، أو سبع سُدُم سديمية، والسديم هو الأصل الذى تكونت منه المجرات؟ وهل العدد «سبع» مقصود تحديداً، أو كما يقولون أحياناً: العدد لا مفهوم له، أى أن المراد به الكثرة؟ لا يستطيع أحد الجزم بغير أن الله خلق سبع سماوات كما أخبرنا، ولكن ما هى؟ وما طبيعتها نقف عند هذا الحد، ولا نقول إلا ما علّمنا الراسخون فى العلم أن نقوله كما فى قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ آل عمران: ٧.

وقد ورد فى حديث المعراج أن الرسول صلى الله عليه وسلم عرج إلى السماوات السبع وكان معه جبريل، فكان يستأذن عند كل سماء فيفتح له حراسها الباب، فيجد بها بعض الأنبياء فيحييهم ويحيونه.

من صفات السماء:

١ - السماء بناء:

ورد فى القرآن الكريم أن السماء بناء بناها الله بقوته وقدرته فقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ البقرة: ٢٢ وفى سورة غافر: ﴿ ٱللَّهُ

ﵟٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗﵞ غافر: ٦٤ ويقول تعالى فى سورة الذاريات: ﵟوَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَﵞ الذاريات: ٤٧ وفى سورة «ق»ﵟأَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَاﵞ ق: ٦ وفى سورة النبأ: ﵟوَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗاﵞ النبأ: ١٢ وفى سورة النازعات: ﵟفَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَاﵞ النازعات: ٢٧ - ٢٨ وقد أضافت هذه الآية إلى البناء، رفع سمت السماء إلى أعلى، وتسوية بنائها. وأخيراً فى سورة الشمس يقول تعالى مقسماًﵟوَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَاﵞ الشمس: ٥ .

وفى آية أخرى يصف السماء بأنها سقف محفوظ فى قوله تعالى: ﵟوَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَﵞ الأنبياء: ٣٢ فالسماء فى نظر الرائى تبدو بناء محكماً، وتعلو الأرض كما يعلو سقف البيت ما تحته من بناء. وقد وصف الله السقف بأنه محفوظ من الخلل أو السقوط بقدرة الله سبحانه.

٢ - السماء ذات بروج:

ومن صفاتها أيضاً أنها ذات بروج، فقد قال تعالى: ﵟوَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَﵞ الحِجْر: ١٦ وقال فى سورة الفرقان: ﵟتَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗاﵞ الفرقان: ٦١، وأقسم بالسماء ذات البروج فى مفتتح سورة سميت باسم البروج فقال تعالى: ﵟوَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِﵞ البروج: ١ .

والبروج - كما يقول المرحوم سيد قطب:[1] « قد تكون هى النجوم والكواكب بضخامتها، قد تكون هى منازل النجوم والكواكب التى تنتقل فيها فى مدارها وهى فى كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة، وشاهدة بالدقة ، وشاهدة بالإبداع الجميل» ويعرف

(١) فى ظلال القرآن الكريم - سورة الحجر عند تفسير الآية (٦١).

الفلكيون البروج، ويقسمونها اثنى عشر برجًا، ويعطون اسما لكل برج. وقد شاعت هذه الأسماء لدى الناس.

٣- السماء ذات حبك:

فقد ورد فى سورة الذاريات قوله تعالى:﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾الذاريات: ٧ فالله يقسم بالسماء الموصوفة بأنها ذات حُبك- والحبك جمع حبيكة أى طريقة فالمعنى ذات الطرائق الحسنة والخَلق الحسن والحُسن المستوى، لأن المحبوك فى اللغة ما أجيد عمله، فكل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد حبكته.

٤ - السماء ذات أبواب:

ورد فى القرآن الكريم ما يدل على أن للسماء أبواباً. فقد قال تعالى فى سورة الأعراف فى بيان مصير الكافرين والمكذبين، أنهم محرومون من نعيم الله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾الأعراف: ٤٠ وقد تكون الأبواب هنا مجازية، وأن المعنى أنهم لن تنالهم رحمة الله.

وقال تعالى فى سورة الحِجْر: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (الحجر: ١٤) وقال فى سورة القمر﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾القمر: ١١.

وحديث المعراج يؤكد هذا.

السماء مصدر الخير لسكان الأرض:

وردت آيات كثيرة تبين فضل الله الذى أغدقه على البشر وحيواناتهم ونباتاتهم عن طريق السماء. ويتمثل هذا الخير فى المطر الذى ينزل من السماء فيكون سبباً فى

حياة الإنسان والحيوان والنبات. وسأتناول أمثلة من هذه الآيات، وسأذكر آيات أخرى في فصول تالية.

ففي سورة البقرة يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ ﴾ البقرة: ٢٢ وفي سورة الأنعام: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ الأنعام: ٩٩ وفي سورة النحل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ النحل: ١٠ وفي سورة طه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴾ طه: ٥٣ وفي سورة الحج: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ الحج: ٦٣ وفي سورة النمل ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ النمل: ٦٠ ومثل ذلك قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ لقمان: ١٠

وكذلك قوله تعالى: في سورة فاطر﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴾فاطر: ٢٧

وفي سورة ق: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴾ ق: ٩ ونتيجة لهذا ذكر الله أن رزق الخلائق جميعهم في السماء فقال تعالى﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ الذاريات:٢٢

ومصدر العذاب أيضا للكافرين:

وإن كانت السماء مصدر الخير للكائنات جميعاً كما ذكر القرآن، فقد نزل منها العذاب على الكفار المعاندين لرسلهم المكذبين بآيات الله والمتحدِّين لدعوته إياهم إلى الإيمان كما حدث مع قوم موسى الذين خالفوا أمر الله فى شكره على دخولهم القرية وهزيمة أعدائهم بها، فعصوا ما أمرهم الله به، وتحدوا تعليماته يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ البقرة: ٥٨ - ٥٩.

وكما حدث مع قوم لوط حينما أعلن الملائكة الذين أرسلهم الله إلى لوط فى هيئة رجال ليوقعوا العذاب على هؤلاء الكفار: قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ العنكبوت: ٣٤ وتوعد الله كفار قريش بعذاب يأتيهم من السماء يتمثل فى دخان بيِّن ظاهر يصيبهم بالجدب والقحط فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ الدخان: ١٠.

ويقول المفسرون: إن هذا الدخان قد جاء وأصبحت السماء التى هى مصدر الرزق والخير مصدر الجدب والقحط، وقحطوا سبع سنين، وأخذوا يستغيثون بالرسول صلى الله عليه وسلم، فدعا الله واستجاب الله دعاءه، وأرسل عليهم المطر.

وهؤلاء الكفار لم يتعظوا بل أخذوا يتحدون الرسول أن ينزل عليهم حجارة من السماء. فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الأنفال: ٣٢ وفى سورة الإسراء يطلبون من الرسول أن يسقط السماء عليهم قطعاً: ﴿أَوْ تُسْقِطَ

﴿ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ الإسراء: ٩٢ وهم يقلدون فى هذا الكفار ومن قبلهم حيث طلب أصحاب الأيكة من نبيهم شعيب[١] أن يُسقط السماء عليهم كسفاً. فقد حكى القرآن عنهم قولهم له ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ الشعراء: ١٨٧ ويتوعد الله المكذبين، ويحذرهم بإرسال حاصب عليهم من السماء إذا استمروا فى عنادهم. يقول تعالى﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ الملك: ١٧.

السماء الدنيا:

وهى السماء القريبة من الأرض، والتى ننظر إلى أعلى فنراها. فالدنيا مؤنث أدنى أى الأقرب، من الدنو أى القرب. وقد وردت السماء ثلاث مرات فى القرآن الكريم. فقد وردت فى سورة الصافات فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ الصافات: ٦ - ١٠ فهذه الآيات تتحدث عن أمرين:

١ - أن الله زين السماء القريبة بزينة هى هذه الكواكب المنتشرة فيها، كاللآلئ المنثورة على بساط أزرق.

٢ - وأن هذه الكواكب منها الشهب وهى معدَّة لمطاردة الشياطين العتاة المتمردين الذين يحاولون التسمع إلى الملأ الأعلى حيث مجتمع الملائكة المكلَّفة بتصريف شؤون البشر، ليعرفوا بعض أمور الغيب منهم، ولكن هذه الشهب مترصدة لهم، فتطاردهم

---

(١) انظر القصة بالتفصيل فى الجزء الأول من هذه السلسلة (القصة فى القرآن الكريم).

من جميع جوانبهم لتطردهم أذلاء صاغرين من أماكن التسمع وسوف يلقون فى الآخرة عذاباً موصولا لا ينقطع. ولكن قد يتمكن أحدهم من خطف كلمة من هنا أو هناك فيتبعه شهاب مضيء يتوهج ناراً فيحرقه.

وفى سورة فصلت يذكر الله هذين الأمرين ولكن فى إيجاز. وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ فصلت: ١٢ فقد اكتفى بالفعل «زينا» وذكر «المصابيح» بدل الكواكب، فقد شبه الكواكب بمصابيح تنير للناس حياتهم. ولم يذكر الشياطين وما يحاولونه من استراق السمع، ومطاردة الشهب لهم، بل اكتفى بلفظ حفظاً أى إنها محفوظة من كل محاولة شيطانية للاقتراب منها. ثم ختم الآية بذكر صفتين من صفاته تناسبان هذا المقام وهما العزة أى الغلبة والقدرة على الخلق، وهذا الحفظ. والعلم بما يحتاجه هذا الخلق وهذا الحفظ من وسائل الإبداع والحماية.

وأما المرة الثالثة فجاءت فى سورة «الملك» فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ الملك: ٥ فاستعار للكواكب لفظ «مصابيح» كما ذكر فى (فصلت). وبين إحدى وظائف الكواكب وهى أن يكون بعضها هو الشهب معدّاً لرجم الشياطين الذين يحاولون الاقتراب منها.

وقد مرت بنا آيتان فيهما ذكر تزيين السماء وهما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾الحجر: ١٦ وقوله تعالى﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ق: ٦ والمراد بالسماء فى الآيتين « السماء الدنيا» بدليل الآيات الثلاث السابقة، وبقوله تعالى فى الآية الأخيرة «فوقهم» فالذى فوقهم هى السماء الدنيا.

وأما رجم الشياطين الذين يحاولون استراق السمع بالشهب فقد ورد أيضاً فى

سورة الجن حكاية عن قول الجن الذين سمعوا القرآن وآمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم، ثم ذهبوا إلى قومهم منذرين. فقال الله حكاية عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ الجن: ٨ – ٩ فهتان الآيتان تبينان أن الشياطين كانوا يُمَكَّنون من الاستماع إلى الملأ الأعلى وينقلون ما يسمعون إلى أتباعهم من الكهنة والمنجمين، ثم فوجئوا بأن السماء وضعت عليها حراسة شديدة، وامتلأت بالشهب التى تطارد كل من يحاول استراق السمع. فتساءل العقلاء منهم عن سر هذه الحراسة وهذه الشهب، هل فيها خير للبشرية أو شر لها: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ الجن: ١٠ ولكنهم عرفوا السر بعد ما سمعوا الرسول صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فآمنوا به، لقد بلغت البشرية سن الرشد، ولم تعد فى حاجة إلى التسمع إلى السماء لالتقاط أخبار منها عن طريق الشياطين فقد جاءهم الرسول الخاتم والكتاب المبين الذى يهدى به الله من اتبعه سبل السلام ويخرجه من الظلمات إلى النور.

ولكن ما المراد بالسماء الدنيا؟ هل المراد بها مجرتنا المعروفة بدرب التبانة أو الطريق اللبنى؟ ربما فهى التى نراها بأعيننا، ونشهد انتشار النجوم والكواكب على صفحتها فتمتلئ قلوبنا روعة، ونحس بجمال هذه الزينة الرائعة، ونعجب بإبداع الصنعة وإحكام الخلق. ولكن لا يستطيع المرء أن يجزم بشيء، وليس لنا إلا أن نؤمن بما قال ربنا. ونقول: الله أعلم بمراده.

وقد يكون من المناسب هنا أن أذكر رأى بعض العلماء المحدثين[١] فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ النازعات: ٢٩ والضمير هنا يعود على السماء

(١) د. أحمد شوقى – الأهرام – ٢٥ / ٢ / ١٩٩٨.

المذكورة فى الآية السابقة. ومعنى أغطش اشتد ظلامها يقول هذا العالِـمُ: كان اعتقاد العلماء فى العصور السابقة حتى القرن الحالى أن السماء تكون مضيئة كلها بضوء الشمس، وأنها فى الليل تكون فى ظلمة بمعنى أن في السماء يتتابع الليل والنهار كما يحدث على الأرض. ولكن كيف تكون السماء شديدة الظلمة ومضيئة فى نفس الوقت كما يفهم من الآية، فقد أضافت الليل إلى السماء، كما أضافت الضوء إليها. وكان هذا التباين فى المعنى سبباً فى اختلاف وجهات نظر المفسرين للآية الكريمة، وظل المغزى العلمى للآية الكريمة غامضا إلى أن جاء عصر العلم الحالى الذى اكتشف فيه العلماء أن سماء الدنيا سماءان: سماء دنيا حيث الغلاف الجوى للأرض وسماء فوق الغلاف الجوى حيث الفضاء الكونى. يشتت الغلاف الجوى للأرض ضوء الشمس فتضيء أثناء النهار. ولكن إذا انطلقنا بصاروخ فضائى إلى ما فوق الغلاف الجوى للأرض خرجنا من الضوء إلى ظلام الفضاء الكونى الحالك، وليله الدائم على الرغم من وجود الشمس، وذلك لأن ضوء الشمس لا يتشتت فى الفضاء الكونى، لأنه خال من جسيمات أو غازات تشتت ضوء الشمس كما هو الحال فى الغلاف الجوى للأرض. لذلك يمر ضوء الشمس فى سماء الغلاف الجوى فتضيء، وأما سماء ما فوق الغلاف الجوى فلا تضيء وتظل فى ليلها المظلم الدائم. فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾النازعات: ٢٩.

الأرض

وكما أفرد الله السماء بالحديث عنها كذلك أفرد الأرض بالحديث عنها.

صفات الأرض:

وصف الله الأرض بعدة صفات كلها تبين فضل الله على عباده بأن هيأ لهم الأرض بهذه الكيفية التى تجعل حياتهم سهلة مريحة.

فقد ذكر أنها «فراش» فى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢٢ أى جعلها مهيَّأة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط، وذلك لا يستدعى كونها مسطحة لأن كروية شكلها مع عظم حجمها لا يأبى الافتراش عليها[١] وقد ذكر هذا المعنى فى سورة «الذاريات» فقد ذكر الله أنه فرش الأرض ثم بسطها ومهدها ليستقر عليها الإنسان وأثنى على نفسه بأنه خير من يمهد مثل هذه الأرض فقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ الذاريات: ٤٨، وذكر أنها ممدودة، وأن الله خلق فيها جبالا ثابتة، تكون كالأوتاد لها تمنعها من الاضطراب والميل وذلك فى قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الرعد: ٣.

---

(١) - تفسير البيضاوى

ومَدُّ الأرض لا ينافى كرويتها، فالمراد من المعنى أن الله جعلها واسعة فسيحة ممتدة الآفاق ليستقر عليها الإنسان والحيوان، ولو كانت كلها جبالا ووديانا لما أمكن العيش عليها. وإلى جانب الجبال التى تمنع اضطراب الأرض جعل فيها أنهارا يشرب منها الإنسان والحيوان، وتروى منها الأرض فتخرج من كل الثمرات زوجين ذكرا وأنثى ليستمر الإخصاب والتكاثر. ومثل معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ الحِجْر: ١٩.

وكذلك قوله تعالى فى سورة «ق»﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ ق: ٧.

وقال تعالى فى سورة «طه» ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ طه: ٥٣.

فالأرض ممهدَة يستطيع البشر الاستقرار عليها، وممارسة حياتهم فيها بسهولة ويسر. واختيار لفظ «المهد» وهو فى الأصل فراش الطفل ليوحى بمدى ما تيسره من راحة للإنسان ومن تمام الراحة فيها أن يجعل فيها طرقاً ممهدة ينتقل فيها الناس من مكان إلى مكان.

وقد تكرر هذا المعنى فى آيات أخرى كما فى سورة «الزخرف» فى قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ١٠) وقريب من هذا ما جاء فى سورة النبأ فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ النبأ: ٦.

ووصفها بأنها قرار، أى مستقَر يستقر الناس عليها، وأجرى الأنهار خلالها،

وأرسى فوقها الجبال لتضبط حركتها، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾ النمل: ٦١ وكرر هذا الوصف –أى أنها قرار– فى سورة غافر فى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ غافر: ٦٤.

وذكر تعالى فى سورة الرحمن» أنه خلق الأرض لخير البشر، وأنبت فيها فاكهة، والنخل بما يحمله من أنواع البلح، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴾ الرحمن: ١٠ – ١١.

كما وصفها بأنها «ذلول» أى ممهدة يسهل السير فيها. لذا أعقب هذا الوصف بدعوة الناس إلى المشى فى جوانبها لتحصيل الرزق الذى هيأه الله لهم. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ الملك: ١٥.

ووصفها فى سورة نوح أنها «بساط» أى مبسوطة أمام العين فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ نوح: ١٩.

وبين الله سبحانه وتعالى أنه جعل الأرض جامعة ضامَّة، تجمع الأحياء فوق ظهرها، وتضم الأموات فى بطنها، وجعل فوقها الجبال ثابتة شامخة تحفظ توازنها فقال تعالى فى سورة المرسلات: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ ﴾ المرسلات: ٢٥ – ٢٧.

قال المفسرون: الكَفْت: الجمع والضم، فالأرض تجمع وتضم إليها جميع البشر فهى كالأم لهم: الأحياء، يسكنون فوق ظهرها فى المنازل والدور، والأموات يسكنون فى بطنها فى القبور، كما قال تعالى فى سورة طه: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ

تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ طه: ٥٥.

قد أقسم الله بالأرض وبَسْطها ومدِّها لتسع المخلوقات، وتمكنهم من الحياة فيها. فقال تعالى فى سورة الشمس ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ ﴾ الشمس: ٦.

كروية الأرض:

ليس فى القرآن نص صريح على كروية الأرض، وما كان ليوجد، فالقرآن كتاب هداية وتشريع، وليس كتاب نظريات علمية، ولو أنه ذكر للناس فى عصر النبوة أن الأرض كروية ما آمن به أحد، لأن الناس فى هذه العصور وفى قرون بعدها، ما كانوا يستطيعون تخيل هذه الحقيقة، ومع ذلك ففى بعض النصوص القرآنية ما يمكن أن نفهم منه أن الأرض كروية، وقد فسر بعض المحدَثين الآية القرآنية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ الرعد: ٤١ على هذا المعنى فجعل المراد بالنقص من الأطراف، ضيق مساحة أطرافها عند مساحة المركز وهذا يعطيها شكلا بيضاويا، كان قدامى المفسرين أجمعوا على أن المراد بالنقص من الأطراف، استيلاء المسلمين على أراض لم تكن لهم، وضمها إلى ممتلكاتهم، ولكن التفسير الأول هو الأقرب لمعنى العبارة بعد الكشوف الحديثة.

وقد وجد العلامة وحيد الدين خان فى كتابه (الإسلام يتحدى) إشارة علمية أخرى فى قوله تعالى﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ النازعات: ٣٠.

فهو يرى أن هذه الآية الكريمة تطابق مطابقة عجيبة أحدث الكشوف العلمية وهو: نظرية تباعد القارات، أو انتشارها، ومغزى هذه النظرية أن جميع القارات كانت فى وقت من الأوقات أجزاءً متصلة، ثم انشقت وبدأت تنقذف أو تنتشر من تلقاء

نفسها، وهكذا وجدت قارات تحول دونها بحور واسعة وقد طرحت هذه النظرية فى العالم عام ١٩١٥ لأول مرة...

لقد ورد فى الآية المذكورة لفظ «الدحو» ومعناه تسوية الشيء ونثره كما يقال: «دحا المطر الحصى عن وجه الأرض» وهذا هو نفس مفهوم الكلمة الإنجليزية (Drift) التى استخدمت فى التعبير عن النظرية الجغرافية الحديثة[1].

ومن الإشارات القرآنية إلى كروية الأرض قوله تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ الزمر: ٥.

يقول الشيخ الشعراوى فى كتابه الأدلة المادية على وجود الله[2]» إن الله سبحانه وتعالى يصف أن الليل والنهار خلقا على هيئة التكوير، وبما أن الليل والنهار وجدا على سطح الأرض معا فلا يمكن أن يكونا على هيئة التكوير إلا إذا كانت الأرض نفسها كروية. بحيث يكون نصف الكرة مظلما، والنصف الآخر مضيئا... وهذه حقيقة قرآنية أخرى تذكر لنا أن نصف الأرض يكون مضيئا، والنصف الآخر مظلما، أى نصف الكرة الأرضية يكون ليلا والنصف الآخر نهارا. وعندما تقدم العلم، وصعد الإنسان إلى الفضاء، ورأى الأرض وصورها وجد فعلا أن نصفها مضيء ونصفها مظلم كما أخبرنا الله سبحانه.

وإشارة ثالثة نجدها فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ الحجر: ١٩.

---

(١) ص (١٢٩/ ١٣٠).

(٢) ص ١٠٢/ ١٠٣.

وقد علق الشيخ الشعراوى على هذه الآية فى الكتاب المذكور بقوله[١]: أى بسطناها.. أقال: أى أرض؟ لا، لم يحدد أرضا بعينها، بل قال الأرض على إطلاقها. ومعنى ذلك أنه إذا وصلت إلى أى مكان يسمى (أرضا) تراها أمامك ممدودة، أى منبسطة. فإذا كنت فى خط الاستواء، فالأرض أمامك منبسطة، وإذا كنت فى القطب الجنوبى، أو فى القطب الشمالى، أو فى أمريكا أو أوروبا أو أفريقيا أو آسيا، أو فى أى بقعة من الأرض فإنك تراها أمامك منبسطة، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية، فلو كانت مربعة، أو مثلثة أو مسدسة أو على أى شكل هندسى آخر فإنك تصل فيها إلى حافة لن ترى أمامك الأرض منبسطة، ولكنك ترى حافة الأرض ثم الفضاء، ولكن الشكل الهندسى الوحيد الذى يمكن أن تكون فيه الأرض ممدودة فى كل بقعة تصل إليها هى أن تكون الأرض كروية. وهكذا كانت الآية الكريمة التى فهمها بعض الناس على أن الأرض مبسوطة دليل على كروية الأرض، وهذا هو الإعجاز فى القرآن الكريم يأتى باللفظ الواحد ليناسب ظاهر الأشياء ويدل على حقيقتها الكونية». وسأذكر آيات أخرى فيها دليل على كروية الأرض فى مناسباتها.

وقد أدرك هذه الحقيقة وهى أن الأرض كروية جغرافيو المسلمين فى القرون الإسلامية الأولى كما أعلن مفسرو القرآن الكريم القدامى هذه الحقيقة كما ذكرت قبل فى قول البيضاوى فى تفسير قوله تعالى﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ البقرة: ٢٢

فقد قال: وهذا لا يستدعى كونها مسطحة لأن كروية شكلها من عظم حجمها لا يأبى الافتراش عليها.

---

(١) ص ٩٥/٩٦.

الأرضون سبع:

وردت آية واحدة تذكر أن الأرض خلق الله منها سبعا، وذلك فى قوله تعالى فى سورة الطلاق﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ الطلاق: ١٢.

فأين الستة الأُخَر؟ هل تقع فى أماكن أخرى من الفضاء لا نعرفها؟ أو أن المراد بها كواكب سبعة مثل المريخ والزُّهَرة وغيرهما؟ وهل يسكنها بشر مثلنا أو مختلفون عنا؟ الله أعلم.

النيِّرات

وأقصد بالنيرات كل جسم نراه مضيئا فى السماء، وتشمل الشمس والقمر والنجوم والشهب، وقد ذُكرت كل هذه الأجرام التى فى السماء فى القرآن الكريم، بل سميت سورا باسم معظمها فهناك سورة الشمس[١]، وسورة القمر[٢]، وسورة النجم[٣].

الشمس والقمر:

ورد الشمس والقمر مقترنين فى كثير من آيات القرآن الكريم ففى سورة الأنعام قال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ الأنعام: ٩٦ وقد وردت هذه الآية فى معرض امتنان الله على الإنسان بما أولاه من نعم، وإظهار قدرة الله سبحانه حيث ورد قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ الأنعام: ٩٥.

وقد بين الله فى الآية الخاصة بالشمس والقمر فضل الله على عباده فى خلق هذين النيرين حيث جعلهما وسيلة للحساب عند الناس فالشمس تدل على تعاقب الفصول من شتاء وربيع وصيف وخريف ومرور السنين، والقمر يحدد بداية الشهور كما كان يألفها الناس، فكل بزوغ للهلال يعنى دورة للقمر حول الأرض أى شهرا أى تسعة

---

(١) السورة رقم (٩١).

(٢) السورة رقم (٥٤).

(٣) السورة رقم (٥٣).

وعشرين يوما وبعض أجزاء من اليوم.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى فى سورة يونس: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ يونس: ٥. وكان المفسرون القدامى يعللون استخدام لفظ «ضياء» مع الشمس، ولفظ «نورا» مع القمر بأنه لما كانت الشمس أعظم جرما من القمر خصت بالضياء لأنه هو الذى له سطوع ولمعان، ولكننا نعرف الآن السر فى ذلك فالشمس مضيئة بذاتها فهى نجم يشع ضياء وحرارة، وأما القمر فيستمد نوره من الشمس حينما تنعكس أشعتها على سطحه، كما يحدث مع الأرض، ولذلك فالقمر أيضا فيه نصف منير، ونصف مظلم.

وقد اختار الله للشمس لفظ السراج وهو كما نعلم يشع ضياء وحرارة وجاء فى سورة نوح قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ نوح: ١٥ - ١٦.

وقد تكرر استعارة سراج للشمس فى سورتين أُخريين هما: الفرقان حيث قال تعالى: ﴿ جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ الفرقان: ٦١.

وفى سورة النبأ قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ النبأ: ١٣ وقد زاد السراج هنا قوة لوصفه بالوهاج أى الشديد التوهج.

وقد بين الله أنه قدَّر القمر منازل يطلع كل ليلة فى منزل منها وهى ثمانية وعشرون منزلا، وفى الليلة التاسعة والعشرين، وربما يضم إليها الليلة المتممة للثلاثين، يختفى القمر ليولد هلال شهر جديد وتسمى فترة اختفائه بالمحاق، وقد بين الله أهمية الشمس والقمر للناس فبهما يعرفون حساب الأيام والسنين. فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام، وهذا مطابق لما كان يسير عليه العرب وكثير من

الأمم وهو الحساب القمري، وأما الآن فقد أصبح حساب السنين بالشمس يكاد يسود العالم لدقته فى تحديد الأزمنة، فخاطب الله الناس على حسب ظروفهم. وإن كان فى الحساب القمرى راحة للناس فى صومهم ولو كلف المسلمون الصوم فى شهر محدد يسير وفق الحساب الشمسى لكان لزاما عليهم أن يصوموه دائما فى وقت محدد قد يكون شديد الحرارة وشديد الطول، وكذلك الحج.

وبين الله فى آيات عدة أن الشمس والقمر مسخران، وأحيانا يضاف إليهما النجوم كما فى قوله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ﴾ الأعراف: ٥٤.

ومعنى التسخير أنها خاضعة لقهره ومشيئته يصرفها حيث يشاء، وقد جعلها الله لخدمة الإنسان كما قال تعالى فى سورة النحل﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ النحل: ١٢.

وقد ذكر الله فى عدة آيات أن هذا التسخير سيظل إلى أجل محدد هو يوم القيامة، فينتهى التسخير لأن الشمس والقمر سينتهيان لأن الحياة الأخرى ستبدأ وليس فيها شمس ولا زمهرير كما قال تعالى فى سورة الإنسان﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾ الإنسان: ١٣.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ الرعد: ٢.

ونفس العبارة وردت فى سورة لقمان مع اختلاف يسير حيث قال ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ لقمان: ٢٩.

وفى سورة فاطر كرر ألفاظ سورة الرعد دون تغيير (١٣). وكذلك فى سورة الزمر (٥).

وأما فى سورة «يس» فقد تحدث الله عن جريان الشمس لمستقر لها، وهو جريان

حقيقى، فقد أثبت العلم الحديث بأن الشمس دائمة الدوران حول نفسها لا تتوقف أبدا، وأنها تجرى بسرعة اثنى عشر ميلا فى الثانية، إن دوران هذه الكتلة الضخمة التى تبلغ مليون ضعف حجم الأرض فى الفضاء النهائى بهذه السرعة ليدل على تقدير إله موصوف بالعزة و العلم قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ يس: ٣٨.

وقد ورد وصف الله بهاتين الصفتين فى آية (الأنعام السابقة) وأما القمر فقد ذكر الله أنه قدر له منازل ينزل فيها كل ليلة ثم يدق ويتقوس - فى نظر العين- فيبدو كأنه عذق النحلة الجاف المتغضن[١] . قال تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ يس: ٣٩.

ثم يقرر الله سبحانه حقيقة مهمة، هى أن الشمس والقمر لا يمكن أن يتلاقيا أو يتصادما، فلا ينبغى للشمس أن تدرك القمر، ونفهم أيضا أنه بالمثل لا يمكن للقمر أن يدرك الشمس فلكل منهما مدار يسير فيه لا يتجاوزه. وعلم الفلك يحدثنا عن المساحات الشاسعة بين النجوم والكواكب والأقمار، فبين الشمس والأرض نحو من ثلاثة وتسعين مليون ميل. وبين الأرض والقمر نحو مائتى وأربعين ألف ميل، ولعلها أقرب مسافة بين كوكب وتابعه، أما المسافة بين الشمس والقمر فهى قريبة من المسافة بينها وبين الأرض، وقد تضيق هذه المسافات قليلا أو تتسع قليلا، ولكنها لا يمكن أبدا أن تسمح بإدراك أحدهما للآخر أو الاصطدام به. كما يقرر القرآن حقيقة أخرى، وهى أن الليل لا يسبق النهار كما سأبين عند الحديث عن الليل والنهار، ثم يختم الله هذا التقرير بأن كلا من هذه الكائنات تسبح فى فلكها لا تتجاوزه قال تعالى

---

(١) عنقود البلح وهو ما يطلق عليه (السباطة).

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يس: ٤٠

وهذا المعنى وهو سباحة الشمس والقمر فى فلكين ورد أيضا فى سورة الأنبياء فى قوله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ الأنبياء: ٣٣

ويعقب وحيد الدين خان فى كتابه «الإسلام يتحدى»[1] أن الإنسان فى العصر الغابر كان يشاهد أن النجوم تتحرك وتبتعد عن أمكنتها بعد وقت معين. ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآنى موضع دهشتهم واستغرابهم. ولكن البحوث الحديثة خلعت على هذه التعبيرات ثوبا جديدا، فليس هناك تعبير أروع ولا أدق من «السباحة» لدوران الأجرام السماوية فى الفضاء البسيط اللطيف.

وذكر الله فى سورة فصلت أن الشمس والقمر دليلان من أدلة قدرة الله ووحدانيته -مع الليل والنهار الناشئين عنهما- وهذا يقتضى إفراد الله وحده بالعبادة والخضوع، وعدم النظر إلى الشمس والقمر على أنهما إلهان يستحقان السجود قال تعالى﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فصلت: ٣٧.

وفى سورة الرحمن يبين الله أن الشمس والقمر يجريان بحساب معلوم فى بروجهما، ويتنقلان فى منازلهما لصالح العباد. قال تعالى﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ الرحمن: ٥.

وقد أقسم الله بالشمس ونورها الساطع وقت الضحى، وبالقمر الذى يتبع الشمس فى الطلوع بعد غروبها، فيعوض البشرية عن اختفاء نور الشمس بعض التعويض. قال تعالى﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ الشمس: ١ – ٢.

---

(١) ص ١٢٥.

والقَسم فى القرآن يأتى ليدل على ما للمقسَم به من أهمية، وما فيه من دلالة على قدرة الله، وما فيه من منافع للناس.

وقد بين الله فى سورة القيامة المصير الذى سينتهى إليه كل من الشمس والقمر، فالقمر سيخسف، أى ينطفئ نوره كلية، ثم يجمع هو والشمس بعد أن ينكمش كلاهما، وينطفئ النور والضياء منهما، وذلك عند انتهاء العالم﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ القيامة: ٧ - ٩.

وقد ذكر الله مصيراً للشمس يقارب هذا المصير ويوضحه وهى أن الشمس ستكوَّر أى تلَفُّ، ويمحى ضوؤها. قال تعالى﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ التكوير: ١.

وبالإضافة إلى هذه الإشارات الفلكية ورد ذكر الشمس والقمر وكذلك الكواكب والنجوم فى مجالات أخرى، فقد حاول سيدنا إبراهيم عليه السلام إقناع قومه بعدم أحقية الكواكب أو القمر أو الشمس بالعبادة بدليل ملموس فأظهر اهتمامه بأمر كل منهما، وتظاهر بأنه سيعبد الكوكب عندما شاهده مضيئا ولكن عند أفوله كفر به. وكذلك فعل مع الشمس والقمر.[1].

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ الأنعام: ٧٦ - ٧٨.

كما ذُكرت الشمس والقمر والكواكب فى سورة يوسف، فى رؤيا يوسف فى أثناء

(١)القصة مفصلة فى الجزء الأول من هذه الموسوعة.

صباه بأن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر سجدوا له وقد تحققت هذه الرؤيا بعد سنين طويلة حيث سجد له إخوته الأحد عشر وأبوه وأمه.

قال تعالى ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ يوسف: ٤.

وقد ذكر الله فى سورة «الحج» أن جميع الكائنات تسجد لله سبحانه ومنها الشمس والقمر والنجوم. فقال تعالى﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ الحج: ١٨.

الشمس:

كما وردت الشمس منفردة عن القمر فى عدة آيات. ففى سورة البقرة استعان سيدنا إبراهيم بمشرق الشمس ومغربها ليفحم الملك الذى زعم أن له قدرة مثل قدرة الله. فعندما قال إبراهيم إن ربى يحيى ويميت، قال الملك وأنا كذلك -فهو يقتل من يشاء ويعفو عمن يستحق القتل- فأفحمه إبراهيم﴿ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾ البقرة: ٢٥٨

وقد أمر الله رسوله -والمسلمون تبع له- بأن يقيم الصلاة عند زوال الشمس، وعندما يحل الظلام ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ الإسراء: ٧٨

كما أمره بالتسبيح بحمد الله قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وقد ورد هذا المعنى فى سورتين هما «طه» فى قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ طه: ١٣٠

وسورة «ق»﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ

ٱلْغُرُوبِ﴾ ق: ٣٩.

ولشعور الناس بأهمية الشمس لحياتهم وما تسبغه عليهم من خير ودفء عبدها كثير منهم، وقد ذكر الله فى سورة النمل على لسان هدهد سليمان أن ملكة سبأ وقومها كانوا يعبدون الشمس من دون الله، واستنكر ذلك عليهم، وذكر أن فعلهم هذا بسبب وسوسة الشيطان لهم ليصدهم عن سبيل الله. يذكر ذلك الله تعالى ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ النمل: ٢٤.

الظل والشمس:

والظل نقيض الشمس، فإذا وُجدت فى مكان زال الظل منه، وإذا غابت عن مكان ظهر الظل فيه، فالظل تابع لسير الشمس، وهى دليل عليه، والظل فيه راحة من حرارة الشمس، ونعمة للسائر فى هجيرها، وقد ذكر الله فى سورة الفرقان تتابع الظل والشمس على الأماكن فى شتى أرجاء العالم فى أثناء النهار، وقد لفت الله الانتباه إلى هذه الحقيقة ليعرف الناس مدى قدرة الله وفضله عليهم، فوجه نظرهم إلى الظل كيف يمده الله إلى كل مكان تغيب عنه الشمس، وكان فى قدرته أن يجعله ثابتا لا يتحرك، وفى هذا ضرر عظيم للبشرية، لأن الشمس ستظل مسلَّطة على أماكن بعينها فتؤذيها الحرارة الدائمة، ويظل الظل مسيطرا على أماكن أخرى فتؤذيها البرودة، ثم ذكر الله أنه جعل الشمس دليلا على وجود الظل، فهو يعقبها دائما، ثم يذكر الله انكماش الظل عندما يشتد وهج الشمس، وتتوسط السماء. فيصور ذلك بالقبـض - مثل قبض الأشياء أى تضييق مساحتها- ويبين أن ذلك يحدث شيئا فشيئا، ولا يحدث دفعة واحدة.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ

عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ الفرقان: ٤٥ - ٤٦.

ومن نعم الله التى امتن بها على عباده أنه جعل لكل شىء مما خلق ظلا يستظل الناس به من وهج الشمس، فالبيوت لها ظل، والشجر له ظل، والغمام له ظل، فقال تعالى ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾ النحل: ٨١ ولنلاحظ قوله «لكم» الذى يفيد أن الله فعل ذلك لراحة الإنسان.

وقد ذكر الله تعالى عدة أشياء متناقضة فى أنفسها وبيَّن أنه لا يمكن أن تستوى فى الحسن والفضل، وكان منها الظل والحرور. وكان الظل فى جانب الحسن والفضل. قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾ فاطر: ١٩ - ٢١.

ولما فى الظل من راحة يحسها الإنسان، وينعم بها، ويعتبرها من ألوان النعيم، ذكر الله فى عدة آيات أن مما ينعم به أهل الجنة الظل الظليل الذى يحيطهم من كل جانب، حتى لقد جعلهم يدخلون فيه، فقال تعالى ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ النساء: ٥٧

وأن هذا الظل من متع الجنة الدائمة كالطعام:

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ الرعد: ٣٥.

وأهل الجنة يستمتعون هم وأزواجهم بهذه الظلال وهم متكئون على الأرائك:

﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ يس: ٥٦.

وهم يعيشون بين الفاكهة كالموز، وشجر النبق الذى أزيل شوكه وتحت الظل الممدود عليهم ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ الواقعة: ٢٨ - ٣٠.

ومن باب المشاكلة جعل الله لأهل النار ظلا، ولكنه ظل من دخان أسود خانق

﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِّن يَحۡمُومٍ﴾ الواقعة: ٤٢ - ٤٣.

وعندما ينطلق أهل الجنة لظلهم المريح يقال لأهل النار سخرية بهم: انطلقوا أنتم أيضا إلى الظل ولكن ظل من دخان جهنم يرتفع -لضخامته فوق ثلاث شعب- ولكنه لا يحقق شيئا من خصائص الظل، فهو لا يكسبهم راحة الظل، ولا يحميهم من حر جهنم﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغۡنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ المرسلات: ٣٠ - ٣١

القمر:

وأما القمر فلم يُذكَر منفردا عن الشمس إلا فى سورة المدثر فى قوله تعالى﴿ كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴾المدثر: ٣٢

وسورة القمر فى قوله تعالى﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ القمر: ١

وقد فهم كثيرون من المفسرين أن انشقاق القمر حدث فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم معجزة له، فقد ذكر المفسرون أن كفار مكة قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كنت صادقا فَشُقَّ لنا القمر فرقتين، ووعدوه بالإيمان إن فعل، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعطيه ما طلبوا. فانشق القمر: نصف على جبل الصفا ونصف عل جبل قعيقعان المقابل له حتى رأوا حراء بينهما. فقالوا: سحرنا محمد. ثم قالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. فقال أبو جهل: اصبروا يأتينا أهل البوادى، فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا. فجاءوا فأخبروا بانشقاق القمر. فقال أبو جهل والمشركون: هذا سحر مستمر. وقد رويت أحاديث بهذا المعنى فى صحيح البخارى ومسلم وغيرهما ولكن فريق من المفسرين يرى أن هذا الانشقاق سيحدث عندما تقترب الساعة بدليل

قوله تعالى قبل ذلك ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ القمر: ١.

وأما أنه عبر عنه بلفظ الماضي فقال ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ القمر: ١.

فذلك تأكيد لحدوث الفعل كما قال تعالى ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ النحل: ١.

فهو لم يأت بعد. فذكروا أن القمر لا يقتصر ظهوره على مكة وما حولها. بل يشمل نصف العالم فلو حدث هذا الانشقاق لرآه نصف العالم. وسجله التاريخ وهذا لم يحدث ويوافق علماء الفلك المحدثون على أن القمر سوف يأتى قريبا من الأرض وعندئذ سوف ينشق القمر، وسوف يتناثر حول فضاء الأرض فى صورة حلقة. ويعقب وحيد الدين خان فى كتابه: " الإسلام يتحدى "[١] بقوله: أليست هذه النظرية من أعظم موافقات العلم لتلك النبوءة الواردة فى القرآن الكريم حول انشقاق القمر. ثم يعرض آراء المفسرين حول هذه الآية. فالجمهرة منهم ترى أنه انشق فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم معجزة له مستندين إلى الأحاديث الواردة فى ذلك كما سبق أن ذكرت. وهناك رأى ثان لبعض المفسرين القدامى وعلى رأسهم الحسن البصرى بأنه سينشق يوم القيامة عند النفخة الثانية –نفخة الصعق- وهناك فئة ثالثة من العلماء تؤثر التوفيق بين الرأيين. فهم يرون أن معجزة شق القمر التى ورد ذكرها فى الأحاديث وقعت أمام جمع من المسلمين والمشركين «بمنى» فى مكة المكرمة. ويرى الإمام الغزالى والشاه ولى الله الدهلوى أنها وقعت بتصرف البصر. ومن الممكن أن تكون قد حدثت فعلا نتيجة انشقاق فلكى وهكذا ستكون الواقعة الأولى آية أولية للأحداث التى ستجرى قرب القيامة. وفيها يقول المفسر الهندى الكبير العلامة

(١) ترجمة: د. عبد الصبور شاهين ص١٢٨.

شبير أحمد العثمانى فى تفسيره: لقد كانت معجزة شق القمر مثالا على أن كل شيء سينشق هكذا عند اقتراب القيامة».

كما ورد لفظ «الأهلة» جمع هلال وهو أول ظهور القمر كل شهر فى سورة البقرة فى قوله تعالى﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ البقرة: ١٨٩.

يقول المفسرون: إن بعض الصحابة قالوا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط، ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوى، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، ولا يكون على حالة واحدة كالشمس. فنزلت هذه الآية، وقد لفتهم الله إلى ما يجب أن يهتموا به وهو الجانب العملى للأشياء، الذى ينتفعون به فى دينهم ودنياهم فبين لهم فائدة الأهلة، لا طبيعتها، وهى أنها تُتخَذ لمواقيت العبادات من صيام أو حج، والتشريعات من بيان لعدة المطلقة، وغير ذلك من الأمور التى تمس حياتهم.

النجوم والكواكب:

ولم يفرق القرآن الكريم بين النجوم والكواكب، فالتفرقة بين اللفظين يعرفها الفلكيون. أما الناس وخصوصا الأقدمين فلا يفرقون بينهما. وجاء القرآن على عرف الناس.

وقد وردت عدة آيات تتحدث عن النجم والنجوم، وعن الكوكب أو الكواكب. وقد ذكرت بعضها التى جاءت مع الشمس والقمر، وأذكر هنا الآيات التى انفردت فيها النجوم والكواكب. ففى سورة الأنعام يذكر الله فضله على عباده حينما جعل النجوم هادية لهم فى الظلام سواء أكانوا سائرين فى البر أو البحر، فقال تعالى﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الأنعام: ٩٧.

وكرر هذا المعنى فى سورة «النحل» فى قوله تعالى﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ النحل: ١٥ - ١٦.

والحق أن البشرية ظلت تهتدى فى سيرها بالنجوم قرونا عدة بمعرفتهم لاتجاهات بعض النجوم، ومواقعها مثل النجم القطبى الذى يقع دائما نحو الشمال إلى أن اخترعوا البوصلة التى كان يسميها العرب «الإبرة» ثم جاءت الأجهزة العلمية الدقيقة التى توجه سيرهم.

وقد كان للنجوم أثر كبير فى حياة البشر الأقدمين، فقد كانوا يعتقدون أن لها تأثيرا فى الكون، وفى مصائر الناس، فكانوا يستطلعون رأيها فى كل أمورهم، حتى بعد مجيء الإسلام ظل بعض المسلمين وخصوصا الملوك يعتمدون على استطلاعها، ويعرف الشخص المختص بالنظر فيها «منجما» -اشتق اللفظ من النجم- وذلك على الرغم من تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من محاولة كشف الغيب عن طريقها، واعتبر الذى يفعل ذلك موقنا بتأثير النجوم كافرا بما أُنزل على محمد.

وكان قوم إبراهيم عليه السلام مولعين بالنجوم، يستطلعون رأيها فى كل أمورهم، وقد جاراهم إبراهيم فى هذا الاعتقاد -من حيث الظاهر- ليجد حيلة ليتخلف عن الذهاب معهم، ليخلو له الجو ليكسر الأصنام، فأخذ ينظر فى النجوم، ثم أخبرهم أنها تنبهه أنه سيمرض، ولذلك فإنه سيتخلف عنهم، قال تعالى ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ الصافات: ٨٨ - ٨٩.

وفى سورة الطور يطلب الله من رسوله أن يسبحه فى آخر الليل عندما تغيب النجوم فقال تعالى﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ الطور: ٤٩.

وقد أقسم الله بالنجم فى قوله تعالى﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ النجم: ١ - ٢.

وقد اختار الله سبحانه وتعالى حالة معينة من حالات النجم وهى حالة «هويه» أى سقوطه ليدل على تمام قدرته والقسم بأى مخلوق من المخلوقات من الله ليبين أهمية هذا المخلوق، ويلفت الانتباه إليه، وقد صرح الله بذلك فى آية أخرى عندما أقسم بمواقع النجوم، ثم عقب على ذلك بقوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ الواقعة: ٧٥ - ٧٦.

وهذا من إشارات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم، ونفهم هذا الإعجاز مما اكتشفه العلم الحديث عن المسافات الهائلة بين نجم وآخر. يقول الدكتور عبد الخالق أبو شبانة أستاذ ومدير الأبحاث بجامعة نيويورك عن هذه المواقع[١] : «لكى نستوعب هذا وجب علينا أن نبدأ بما وصل إليه علماء الفلك الذين قالوا: (عند الكلام عن الفضاء نشعر بأننا نتكلم عن اللا نهاية) لذا اتفقوا على استعمال وحدة زمنية وقياسية يستوعبها العقل البشرى وهى سرعة الضوء الذى يقطع فى الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر وفى السنة عشرة ملايين الملايين من الكيلومترات. وتكون الشمس التى هى نجم عادى وبسيط جزءًا من مجرة تعرف بدرب التبانة، وهى تحوى مائة ألف مليون نجم، الشمس إحداها. هذه المجرة عرضها مائة ألف سنة ضوئية ويبتعد كل نجم فيها عن النجم الآخر بالعديد من السنوات الضوئية أى بملايين الملايين من الكيلومترات. ويصل إطار المسافات بين النجوم اللامعة وبين المجرات اللولبية التى تكمن فيها هذه النجوم إلى عشرة آلاف سنة ضوئية. وهى تبتعد عن بعضها بمسافة

---

(١) الأهرام ١٩/ ١٢/ ٩٨.

مليونى سنة ضوئية، ولكى يستوعب القارئ هذه المسافات نسوق إليه المعلومة التالية: تبعد الأرض عن الشمس التى هى نجم فى مجرتنا بمسافة قدرها مائة وخمسون مليون كيلو متر وهى مسافة تقطعها الطائرة التى تفوق سرعتها سرعة الصوت فى عشر سنوات. وإذا أبعدنا الشمس عن مكانها مائة ألف مرة حتى يضمحل ضوؤها ويصبح خافتا كضوء نجم الشعرى اليمانية، وهى نجم لامع نراه فى الأرض، تصل إليها الطائرة فى مليون سنة. كما أن أقرب مجموعة من مجرات النجوم تبعد عنا بمسافة خمسين مليون سنة ضوئية» .

كما أقسم الله مرة ثالثة بالطارق، وقد فخمه وعظمه بالاستفهام عنه استفهام تعظيم، ثم بين المراد به وهو النجم المضيء الذى يعقب الظلام بضيائه فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ الطارق: ١ – ٣.

وإنما سماه طارقا لأن الطارق هو من يأتى الناس ليلا فشبه النجم به لأنه يظهر ليلا ويختفى نهارا.

وقد ذكر الله أنه من أسماء النجوم (الشعرَى) فقال تعالى﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ النجم: ٤٩.

ويعرف بالشعرى اليمانية ويقول عنه الدكتور الفندي إنه أشد نجوم السماء بريقا ويقع فى الجنوب الشرقى ولعل ذلك سبب تسميته باليمانية وتضرب العرب بها الأمثال[١] .

---

(١) الكون بين العلم والدين ص ٥٩.

الكواكب:

وأما الكوكب والكواكب فقد ورد ذكرهما فى عدة آيات. جاء ذكر الكوكب فى قصة إبراهيم عليه السلام التى سبق ذكرها ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ الأنعام: ٧٦.

وجاء فى سورة النور فى مجال ذكر نور الله وتشبيهه بمشكاة فيها مصباح وهذا المصباح فى زجاجة تبدو فى لمعانها وتلألؤها كالكوكب الشديد اللمعان والتلألؤ ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ النور: ٣٥.

كما ورد ذكر الكواكب فى آيتين فى سورتين مختلفتين، يقف المراد من الكواكب فى كل منهما على الطرف النقيض من الآخر، ففى سورة الصافات يذكر الله أنه زين السماء الدنيا بزينة هى الكواكب ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ الصافات: ٦.

وفى سورة الانفطار يذكر الكواكب عندما تنتثر ويذهب بريقها وذلك فى يوم القيامة ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ الانفطار: ١ - ٢.

كما أقسم الله بها دون ذكر لفظها مع ذكر بعض صفاتها فى قوله تعالى﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ التكوير: ١٥ - ١٦.

ويقول المفسرون الخنس هى النجوم المضيئة التى تظهر بالليل وتختفى بالنهار والكنس هى التى تجرى مع الشمس والقمر وتستتر وقت غروبها (صفوة التفاسير).

الشهب:

وكذلك ورد الشهاب والشهب فى عدة آيات وكان ذكر الشهاب والشهب فى

معظمها كوسيلة لمهاجمة الشياطين الذين يحاولون استراق السمع من الملأ الأعلى كما مر ذكر ذلك عند الحديث عن السماء. ففى سورة الحجر ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ الحجر: ١٦ - ١٧.

وفى سورة الصافات يقول الله عن الشياطين ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ ﴾ الصافات: ٨ - ٩.

وفى سورة الجن﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ الجن: ٨ - ٩.

مرة واحدة جاء ذكر شهاب استعارة لشعلة النار وذلك عندما حكى الله عن موسى قبل أن يكلمه تعالى فقد رأى نارا فقال لزوجه (انتظرى حتى أستطلع خبر هذه النار أو أشعل منها شعلة أحضرها لنستدفئ بها. قال تعالى﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ النمل: ٧.

الزمان

الزمان أو الزمن الوقت طويله وقصيره، ولم يرد هذان اللفظان فى القرآن الكريم.

وورد بدلا منهما «الدهر» فى آيتين من القرآن الكريم الأولى فى سورة الجاثية لزعم الكافرين أنه ليس لهم حياة إلا الحياة الدنيا، وأن الذى يميتهم هو الدهر بأعوامه الطويلة التى تفنى كل حى. قال تعالى ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ الجاثية: ٢٤.

والأخرى فى سورة الإنسان: حيث يقرر الله تعالى أن الإنسان مضت عليه أعوام طويلة لم يكن له وجود أو حياة فلا يذكره أحد. قال تعالى ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ الإنسان: ١.

والاستفهام هنا للتقرير. والإنسان قد يكون المراد به جنس الإنسان. أى أنه قد مضت أزمنة لم يكن الإنسان قد خُلق بعدُ، فلم يكن له ذكر فى الوجود، وقد يكون المقصود بالإنسان آدم كما يقول بعض المفسرين. أى أن الله تركه مدة طويلة على صورته الطينية قبل أن ينفخ فيه الروح، ويقدرون هذه المدة بأربعين سنة.

كما وردت أجزاء الزمان فى آيات كثيرة من القرآن الكريم فقد ورد ذكر الساعة والليل والنهار واليوم والشهر والسنة والعام والقرن والأحقاب والعمر والحين. وسأتناول الآيات التى وردت فيها هذه الأزمنة بالشرح والتحليل.

الساعة:

وهى أقل أجزاء الزمن التى وردت فى القرآن الكريم. وقد وردت فى عدة آيات. ففى سورة الأعراف يذكر الله سبحانه أن أجل الناس محدد لا يتأخر ساعة ولا يتقدم. ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ الأعراف: ٣٤ وقد تكرر هذا المعنى فى عدة سور بنفس الألفاظ تقريبا فى سورة يونس (٤٩) وفى سورة النحل (٦) وفى سورة سبأ اختلف التعبير قليلا فقال تعالى﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ سبأ: ٣٠ فالساعة فى هذه الآيات تفيد التحديد الدقيق لوقت الموت، وقد تأتى لتفيد قِصَر الزمان فى الشعور والإحساس، وقد ذكر الله هذا المعنى فى عدة آيات كقوله تعالى فى سورة يونس ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ يونس: ٤٥ فالآية تفيد أن الكفار يشعرون يوم الحشر لهول ما يجدون كأنهم لم يعيشوا فى الدنيا إلا ساعة من ساعات النهار. ومثل هذا المعنى جاء فى سورة الروم فى قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ الروم: ٥٥ ولكن المعنى هنا أكثر توكيدا فبينما جاء التعبير بلفظ الكاف التى تفيد التشبيه لا الجزم فى الآية الأولى أتى فى هذه الآية بلفظ «يقسم» التى تفيد التقرير المؤكد. كما تكرر معنى الآية التى وردت فى سورة الأنبياء فى قوله تعالى فى سورة الأحقاف ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الأحقاف: ٣٥ كما ورد لفظ ساعة فى القرآن ليحدد وقتا معينا يبينه المضاف إلى ساعة كقوله تعالى﴿ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ التوبة: ١١٧ فالساعة هنا بمعنى

وقت وهو وقت العسرة أى الشدة التى كان يعانيها المسلمون فى غزوة تبوك[١].

كما وردت الساعة علما ليوم القيامة. وقد تناولت ذلك فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة. ولعل يوم القيامة سمى بالساعة ليفيد أمرين:

١ - الوقت المحدد الذى لا يتأخر عنه.

٢ - قصر الحياة الدنيا مهما طال زمنها.

الليل والنهار:

ورد لفظ الليل والنهار فى آيات كثيرة، كانت معظمها تذكر الليل والنهار معا، وبعضها يتناول كل منهما على حدة، وسأبدأ بذكر الآيات الشاملة للاثنين، الأسباب الداعية لذكرهما تختلف ظاهريا ولكنها كلها ترجع إلى سبب واحد. هو بيان قدرة الله، ودلالة خلق الليل والنهار على هذه القدرة التى تقتضى أن يكون وحده المستحق للعبادة، المتفرد بالربوبية.

فقد ورد ذكرهما للفت الانتباه إلى أنهما علامتان من علامات ربوبية الله وقدرته، وأن فى تعاقبهما واختلاف طبيعة كل منهما من ظلام دامس إلى نور ساطع آيات دالة على الخالق، وتقتضى التدبر والتفكر من العقلاء يقول تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ البقرة: ١٦٤ فهذه الآية تناولت من مظاهر خلق الله الكثير الذى يدعو إلى إفراده بالعبادة يعنينا منها هنا

---

(١) انظر الغزوة فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة.

اختلاف الليل والنهار. وأما غيرها من المظاهر فستذكر في مكانها المناسب. ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ آل عمران: ١٩٠ الآية اقتصرت على ذكر السموات والأرض والليل والنهار، ومثلها ما جاء في سورة يونس ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[يونس: ٦]. وفي سورة (المؤمنون) ذكر الله من مظاهر قدرته الإحياء والإماتة واختلاف الليل والنهار ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[المؤمنون: ٨٠] . وكذلك قوله تعالى في سورة الجاثية التي جمع عدة من مظاهر خلقه وهي السموات والأرض وخلق البشر وسائر المخلوقات وإنزاله الرزق من السماء، وتصريف الرياح. قال تعالى ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾[الجاثية: ٣-٥].

ونلاحظ أن الله أوضح أن المستفيد من هذه الآيات هم العقلاء الموقنون المتقون. وأما غيرهم من الجهلاء والمعاندين فلن يعتبروا بها بل يمروا عليها وهم عنها معرضون، كما قال تعالى في سورة يوسف ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[يوسف: ١٠٥] .

كما وردت آيات أخرى تبين أن الليل والنهار آية دون ذكر اختلافهما كقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[الإسراء: ١٢] والمعنى واضح هو أن الليل مظلم والنهار مضيء. ولكن لابد لنا من وقفة أمام قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ فقد كان الأقدمون يقولون: إن فيها مجازا في الإنشاء

والمعنى أن النهار مُبْصِرٌ فيه ولكن المحدثين أثبتوا أن فى هذه العبارة إعجازا علمّياً. فقد ثبت علميا أن ضوء الشمس ينعكس ثم تدخل أشعة النور إلى العين فتبصر. إذن فالعين لا تبصر بذاتها بل بالضوء الذى ينعكس على الأشياء الموجودة أمامها ويدخل إلى العين. إذن فآية النهار مبصرة حقيقة وهكذا نرى دقة التعبير القرآنى[1].

كما قال تعالى فى سورة فصلت ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْـلُ وَٱلنَّهَـارُ ﴾[فصلت: ٣٧].

وهناك مجال آخر ذكر فيه الليل والنهار هو تحديد العلاقة بينهما وانضباطهما فلا يطغى أحدهما على الآخر، بل يخرج كل منهما من الآخر ويطلب كل منهما الآخر. وقد ورد ذلك فى آيات عدة منها قوله تعالى ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ [آل عمران: ٢٧]. وإيلاج الليل فى النهار، والنهار فى الليل يحمل معنيين: الأول أن الله يأخذ من النهار فيزيد فى الليل كما فى فصل الشتاء، ويأخذ من الليل فيزيد فى النهار كما فى فصل الصيف، والآخر أن نور النهار يتلاشى تدريجيا ليحل محله الظلام عند قدوم الليل، كما يتلاشى ظلام الليل تدريجيا ليحل محله نور النهار، فكأن كلا منهما يدخل فى الآخر. وكلا المعنيين يدلان على عظمة القدرة الإلهية وطلاقتها.

وقد تكرر هذا المعنى بألفاظه فى سور أخرى. ففى سورة الحج يقول الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْـلَ فِى ٱلنَّهَـارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَـارَ فِى ٱلَّيْـلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[الحج: ٦١]. وفى سورة لقمان ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَـارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَـارَ فِى ٱلَّيْـلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٩]. وفى سورة فاطر ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾[فاطر: ١٣] وفى سورة الحديد نفس العبارة [الحديد: ٦].

---

(١) الأدلة المادية على وجود الله للشيخ الشعراوى ص ٩٣.

كما يذكر الله هذا المعنى فى تعبيرات تصويرية، فالله يجعل الليل غطاءً للنهار يستر نوره بظلامه، كما يصور مرور وقت النهار والنور السريع بأن الليل يجرى وراء النهار مسرعا ليحتل مكانه. يقول تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾[الأعراف: ٥٤] وقد كرر الله الجملة الأخيرة من العبارة فى سورة الرعد بألفاظها حيث قال تعالى ﴿ ... وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الرعد: ٣] وهذه الجملة مناسبة لما قبلها فقد ذكر الله قبلها أنه خلق من كل الثمرات زوجين ذكرا وأنثى. وهما متضادان فى طبيعتيهما فناسب أن يذكر الليل والنهار وهما متضادان أيضا فأحدهما ظلام والآخر نور.

ويعلق وحيد الدين خان على قوله تعالى ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ بقوله إن هذه الآية الكريمة تشرح للإنسان القديم سر مجيء الليل بعد النهار، ولكنها تحوى إشارة رائعة إلى دوران الأرض محوريا، وهذا الدوران الذى يعتبر سبب مجيء الليل والنهار طبقا لمعلوماتنا الحديثة. وأذكر القراء هنا أن من بين المشاهدات التى أدلى بها رجل الفضاء الروسى (جاجارين) بعد دورانه فى الفضاء حول الأرض أنه شاهد تعاقبا سريعا للظلام والنور على سطح الأرض بسبب دورانها المحورى حول الشمس. (١)

وفى معنى تعاقب الليل والنهار ورد قوله تعالى فى سورة الفرقان ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[الفرقان: ٦٢] ومعنى «خلفة» أن كلا من الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر وقد وجد الشيخ الشعراوى

---

(١) الإسلام يتحدى ص ١٢٦.

فى هذه اللفظة دليلا على كروية الأرض[١]، وعلى دورانها حول نفسها، لأن الله يخبرنا أنه جعل كلا منهما يخلف الآخر، فلابد أن يكونا خلقا معا، لأنه لو خلق أحدهما قبل الآخر يكون ساعة خلقة بداية لا خلفة. وهذا يقتضى أن تكون الأرض كروية، وأن كل نصف منها يكون مضيئا فى وقت، ومظلما فى وقت آخر، وهذا يقتضى دوران الأرض حول نفسها، لأنها لو كانت ثابتة لم يخلف الليل النهار، ولا النهار الليل بل ثبت كل فى مكانه، وثمة صورة فريدة يصور الله فيها مجىء الليل بعد النهار فى قوله تعالى ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾[يس: ٣٧].

يقول سيد قطب عند تفسيره هذه الآية فى «ظلال القرآن» إن هذا التعبير تعبير فريد، فهو يصور النهار متلبسا بالليل، ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون. ولعلنا ندرك أن شيئا من هذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته. فالأرض الكروية فى دورتها حول نفسها فى مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس، فإذا هذه النقطة نهار، حتى إذا دارت الأرض، وانزوت تلك النقطة عن الشمس انسلخ منها النهار، ولفها الظلام، وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام، وكأنما نور النهار يُنْزَع أو يُسْلَخ فيحل محله الظلام.

ثم تأتى بعد ذلك آية تبين انضباط سير الليل والنهارفى تعاقبهما، فلا يسبق أحدهما الآخر، وذلك فى قوله تعالى ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾[يس: ٤٠]. ومفهوم المعنى أن النهار أيضا لا يسبق الليل وهذا قريب من معنى قوله تعالى السابق ذكره ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾[الفرقان: ٦٢] وهو يؤكد كروية الأرض لأن معنى عدم سبق أي منهما للآخر أى أنهما وجدا معا ولا

---

(١)الأدلة المادية على وجود الله ص ٩٩.

يتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية.

كما جمعهما معا عند حديثه عن خلقهما، وتسخيرهما بقدرته وإرادته فقال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾[إبراهيم: ٣٣]. وقال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾[النحل: ١٢] وقال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾[الأنبياء: ٣٣].

ونلاحظ أن اقتران الشمس والقمر فى الآيات الثلاث بالليل والنهار. وهذا مفهوم لأن الشمس تأتى مع النهار، والقمر يأتى مع الليل.

ولكن ما معنى تسخير الليل والنهار؟ تشرح آيات كثيرة فى القرآن هذا المعنى وهو أنها مخلوقة لنفع الإنسان وفائدته ففى النهار يعمل ويكد ويجتهد، ثم يستريح بالليل وينام، وتتجدد وظائفه الحيوية استعدادا للعمل فى نهار جديد. وقد عبر الله فى إحدى الآيات أن النوم بالليل موت، وأن النهار بعث وحياة. فإذا نام الناس ليلا توفاهم الله جميعا. فأما من انقضى أجله فلا تعود روحه إلى جسده، وأما الذى لم يحن أجله فتعود إليه روحه، قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: ٦٠]. وقد أوضح الله معنى الوفاة فى النوم فى آية أخرى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[الزمر: ٤٢].

وأعود إلى الآيات التى بينت فائدة الليل والنهار للإنسان. قال تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾[غافر: ٦١]. وقد بين الله وضع الناس فى الليل

وهو السكون والراحة، ولكن لم يبين عملهم فى النهار بل اكتفى بذكر أن النهار مبصر أي مضيء فيفهم من هذا أن الناس يستغلون نوره فى العمل والسعي على الرزق، وقد كرر الله هذا التعبير أيضاً فى سورة النمل فقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾[النمل: ٨٦]. وكذلك فى سورة غافر ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾[غافر: ٦١]. ولكنه صرح بالعمل فى النهار فى آيات أخرى فقال فى سورة الروم ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾[الروم: ٢٣]. المراد بابتغاء الفضل السعي على الرزق بالنهار، وكثيرا ما يعبر الله عن السعي على الرزق بابتغاء فضل الله كما قال تعالى فى سورة الجمعة ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[الجمعة: ١٠].

وقد يعبر الله عن معنى الراحة فى الليل والعمل نهارا تعبيرات مجازية كما قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾[الفرقان: ٤٧]. فشبه الليل باللباس الذى يستر الناس، فهو كذلك يسترهم بظلامه، كما جعل الليل انقطاعا عن العمل، فأما النهار فشبهه بالبعث بعد الموت، وكذلك قوله تعالى فى سورة النبأ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ ﴾[النبأ: ١٠-١١]. وقد مَنَّ الله على عباده أنه لم يجعل حياتهم ليلا دائما، فيفتقدون الضياء الذى يمكنهم من العمل، كما لم يجعل حياتهم نهارا دائما، فيفتقدون السكون والراحة ولن يستطيع أحد غير الله أن يعوضهم ما فقد بل جعل لهم الليل والنهار ليستريحوا فى الأول ويعملوا فى الثانى قال تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢ وَمِن

رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

وقد وردت آيات جمعت الليل والنهار لإفادة الشمول كقوله تعالى ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[الأنعام: ١٣] أى أن الله يملك كل شيء من الكائنات الموجودة ليلا ونهارا، وقوله تعالى ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٠]. فالملائكة لا يكفون عن عبادة الله وذكره فى جميع الأوقات قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[البقرة: ٢٧٤]. وقوله تعالى ﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾[الرعد: ١٠] . فالمعنى أن الله لا تخفى عليه خافية ليلا أو نهارا والسارب هو الظاهر.

وقد أقسم الله بالليل والنهار، والقسم كما بينت –يفيد الأهمية ولفت الانتباه على قدرة الله فيهما فقال تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المدثر: ٣٣-٣٥] . وقال تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ﴾[التكوير: ١٧-١٩]. ومعنى عسعس أقبل بظلامه، ومعنى تنفس امتد حتى يصير نهارا بيِّنًا، وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾[الليل: ١-٢].

وكما ذكر الله كثيرا من الآيات جمع فيها الليل والنهار، ذكر آياتٍ فيها الليل وحده وآيات فيها النهار وحده، وسأورد أمثلة من هذه الآيات فقد قال تعالى ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾[الحجر: ٦٥]. الخطاب موجه إلى لوط عليه السلام عندما أراد الله إنجاءه من قومه الكافرين، وقال الله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾[الإسراء: ٧٩] . والخطاب موجه إلى نبينا محمد ﷺ يدعوه

إلى أن يصلىَ بالليل صلاة زائدة عن المفروضة لكى ينال أعظم مقام عند ربه. كما طلب منه أن يترك الأغطية التى يتزمل بها أى يتغطى بها ليعبد الله ويسبحه وأن يستغرق ذلك الجزء الأكبر من الليل ثم حدد له الجزء الذى لا ينبغى له أن يتهجد بالليل أقل منه هو حوالى النصف يقل عنه قليلا أو يزيد عليه، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾[المزمل: ١-٤]. ثم بين له أن قيام الليل ثقيل على الإنسان لأنه يترك النوم فيه، ولكن القراءة فى سكون الليل أقوم وأبين فقال تعالى ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[المزمل: ٦].

وذكرت الليلة أو الليالى فى القرآن لبيان وقت حدوث الفعل، أو ذكر عدد أوقاته كقوله تعالى ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾[البقرة: ٥١]. إشارة إلى أن الليالى التى طلب الله من موسى أن يهيئ فيها نفسه للقاء ربه وتلقى الوحى منه، وكرر الله ذكر هذه الليالى فى سورة الأعراف، فبين أنه طلب منه تهيئة نفسه فى ثلاثين ليلة، ثم زادها له عشرا فأصبح الوقت أربعين ليلة ﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾[الأعراف: ١٤٢].

وأكد الله وقت إسراء رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله ليلا بعد الفعل «أسرى» وذلك أن معنى الإسراء السير ليلا، فكان ذكر ليلا بعد ذلك تأكيداً للوقت. قال تعالى ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾[الإسراء: ١]. ومثل هذا أمره لموسى أن يسير ببنى إسرائيل لينجوَ من فرعون وجنوده قال تعالى فى سورة الدخان ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[الدخان: ٢٣]. ولما طلب زكريا من ربه علامة تطمئنه على البشارة بميلاد يحيى ذكر له أن العلامة أنه سيعجز عن كلام الناس -دون مرض- لمدة ثلاث ليال ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ

سَوِيًّا ﴿١٠﴾ ﴾[مريم: ١٠] وبين الله أن القرآن أُنزل فى ليلة مباركة وذكر مرة أخرى أنها ليلة الشرف ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾[القدر: ١]. وأقسم بالله بليال عشر وهى العشر الأول من ذى الحجة، لأن الحجاج يجتمعون فيها من كل حدب وصوب، يدعون الله ويبتهلون إليه، قال تعالى ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴿٢﴾ ﴾[الفجر: ١-٢].

وأما النهار فلم يذكر منفردا عن الليل إلا فى ثلاث آيات كما حكى الله عن منافقى اليهود قول بعضهم لبعض ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾[آل عمران: ٧٢]. وقوله تعالى ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡ ﴾[يونس: ٤٥]. ومثلها قوله تعالى فى سورة الأحقاف ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ ﴾[الأحقاف: ٣٥].

ولكن معظم الآيات تتناول الليل والنهار معا. ولا عجب فهما وجهان لعملة واحدة، ويشكلان معا اليوم.

اليوم:

وقد جاء ذكره فى القرآن الكريم فى آيات كثيرة فى معظمها جاء مضافا إلى القيامة أو الدين، أو موصوفا بالآخِر، أو مضافا إلى جملة تحدد وقته، وغالبا ما يكون ذلك عند قيام الساعة كقوله تعالى ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴾[الفرقان: ٢٧] . وقوله تعالى ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴾[المعارج: ٨]. أو موصوفا بجملة تحدد وقته كقوله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[البقرة: ٢٨١].

ويختلف تحديد زمن اليوم عند الله فقد يكون ألف سنة أو خمسين ألف سنة كما ذكرت عند الحديث عن خلق السماوات والأرض.

وأما اليوم الذى نعرفه وهو المحدد بأربع وعشرين ساعة فقد ورد فى عدة آيات.

وقد يقصد به الليل والنهار معا، أو النهار فقط، ففى آيات الصيام مثلا لا يمكن أن يقصد به إلا النهار، كقوله تعالى ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾[البقرة: ١٨٥]. وقوله تعالى عن كفارة اليمين ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾[المائدة: ٨٩]. فواضح أن الأيام هنا يقصد بها النهار فقط لأن الصيام لا يكون ليلا.

ومن الآيات التى يشمل فيها اليوم الليل والنهار قوله تعالى عن الإقامة بمنى وذكر الله فيها ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾[البقرة: ٢٠٣]. وذلك لأن المراد بالذكر هنا أن يكون فى منى وأن يقضى الحاج مقيما بها يومين أو ثلاثة والإقامة تشمل الليل والنهار.

كما يذكر القرآن الكريم اليوم ويريد به الوقت الحاضر كقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ ....(٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾[المائدة: ٣-٥].

وقد سمى الله يومين من أيام الأسبوع (الجمعة والسبت) أما الجمعة فلها سورة سُميت باسمها، طلب الله من المسلمين أن يسارعوا إلى الصلاة يوم الجمعة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ﴾ [الجمعة: ٩] وأما يوم السبت فقد ذكر عدة مرات لبيان اعتداء اليهود على حرمة السبت مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾[البقرة: ٦٥].

أجزاء اليوم:

وقد وردت أجزاء اليوم فى آيات من القرآن الكريم فذكر الفجر والصبح والضحى والبكرة والغدو والظهيرة والأصيل والعشى والسَّحَر.

وقد أقسم الله بالفجر فى سورة سميت باسمه فقال تعالى ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ

عَشۡرٖ ﴿٢﴾﴾[الفجر: ١-٢]. والليالى العشر قال المفسرون إنها العشر الأُوَل من ذى الحجة كما أقسم بالصبح فى سورتين، فى سورة المدثر فى قوله تعالى ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾[المدثر: ٣٤] وفى سورة التكوير فى قوله تعالى ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[التكوير: ١٨] وكان الصبح موعد الهلاك لقوم لوط كما قال تعالى ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [هود: ٨١] . وقال تعالى عنهم أيضا ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾[الحجر: ٦٦] وجاء الصباح فى معرض تهديد الكفار بالعذاب فى قوله تعالى ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾[الصافات: ١٧٧]. وجاء الإصباح فى إظهار الله قدرته وفضله على عباده ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾[الأنعام: ٩٦]. (١)

وأقسم الله بالضحى فى سورتين: الشمس فى قوله تعالى ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾[الشمس: ١]، والضحى ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾[الضحى: ١-٣]. وجعل الضحى موعدا لتحدى موسى لسحرة فرعون حيث قال لهم موسى ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾[طه: ٥٩].

والبكرة وقتها من أول النهار إلى طلوع الشمس، وكذلك الغداة، والغدو فعل الشىء فى الغداة، والظهيرة من وقت الزوال إلى قبيل العصر، والعشى الوقت من زوال الشمس إلى المغرب، والأصيل من وقت اصفرار الشمس إلى غروبها والعشاء أول ظلام الليل، والسَّحَر آخر الليل حتى الفجر، وقد وردت كل هذه الألفاظ فى القرآن وكثيرا ما يقترن لفظ من زمن الصباح بلفظ من زمن المساء ليفيد الشمول كقوله تعالى على لسان زكريا لقومه بعدما بشره الله بيحيى أنه لن يستطيع الكلام كعلامة على

---

(١) كما جاء الفعل من الصباح والمساء فى قوله تعالى ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]. وقوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾[القمر: ٣٨].

صدق النبوءة. فأشار إلى قومه أن يسبحوا الله فى وقت البكرة، ووقت العشى ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم: ١١]. وورد هذا المعنى فى سورة آل عمران. مع ذكر الإبكار بدل بكرة، والإبكار مصدر أبكر أى فعل الشيء وقت البكرة، ولكن الخطاب فى هذه الآية موجه من الله سبحانه إلى زكريا بعدما طلب من الله بعد البشارة علامة فأخبره أنه لن يستطيع أن يكلم الناس إلا بالإشارة، وطلب منه أن يسبح بالعشى والإبكار، قال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾[آل عمران: ٤١]، مثل هذه العبارة وردت فى سورةِ غافر خطابًا للرسول صلى الله عليه وسلم أن يسبح بالعشى والإبكار قال تعالى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾[غافر: ٥٥].

وفى آيات أخرى اقترنت البكرة مع الأصيل، كقوله تعالى فى سورة الفرقان وهو يحكى عن عناد المشركين وادعائهم أن القرآن تُمْلَى على محمد من بعض أهل الكتاب فهم يملونه عليه فى البكرة والأصيل ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[الفرقان: ٥]. وقال فى سورة الأحزاب داعيا المؤمنين إلى ذكره ذكرا كثيرا، وتسبيحه بكرة وأصيلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾[الأحزاب: ٤١-٤٢]. وفى سورة الفتح يقرر الله سبحانه أن أرسل رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم شاهدا على أمته، ومبشرا المؤمنين بالجنة، ومنذرا الكافرين بالعذاب، فعلى المؤمنين أن يؤيدوه ويبجلوه وأن يسبحوا الله بكرة وأصيلا.

قال تعالى ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[الفتح: ٨-٩]. ومثل هذا المعنى ورد فى سورة الإنسان ولكن الخطاب موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّا

﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥)﴾[الإنسان: ٢٣-٢٥].

وكذلك اقترن جمع الأصيل (الآصال) بالغدو في عدة سور ففي سورة الأعراف يأمر الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يذكر ربه في نفسه متضرعا إليه في خفية عن الناس، ودون أن يجهر بهذا الذكر وذلك في أوقات الغدو والآصال، قال تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وورد في سورة الرعد أن كل من في السموات والأرض يسجدون طائعين ومكرهين لعظمة الله وجلاله، وكذلك تسجد ظلالهم في أوقات الغدو والآصال ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥] ويقول المفسرون: إن الذين يسجدون طائعين هم المؤمنون، والذين يسجدون مكرهين هم المنافقون، أو الكفار عندما يصيبهم الضر ولا يجدون ملجأ إلا الله. كما ترد الغدو والآصال في سورة النور عند الحديث عن بيوت الله التي رُفعت أركانها ليذكر فيها اسم الله بالغدو والآصال رجال فرَّغوا أنفسهم لعبادته، ولم تلههم أعراض الحياة الدنيا عن ذلك فقال تعالى ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾[النور: ٣٦-٣٧]. كما وردت «الغدو» مع العشي كقوله تعالى وهو يتحدث عن عذاب آل فرعون بعد موتهم حيث يعرضون على النار غدوا وعشيا ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[غافر: ٤٦].

وقد وردت (البكرة) مفردة عندما ذكر الله موعد عذاب قوم لوط فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾[القمر: ٣٨].

وأما أوقات الظهيرة، والعشاء والسحر جاءت غير مقترنة بزمن آخر كقوله تعالى -وهو يبين أوقات الاستئذان لغير البالغين والمملوكين. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ﴾[النور: ٥٨]. وقوله تعالى عن إخوة يوسف عندما تآمروا عليه، ثم عادوا إلى أبيهم وقت العشاء متظاهرين بالحزن ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾[يوسف: ١٦].

وكذلك سحر في قوله تعالى -محددا وقت إنجاء آل لوط من العذاب الذى تقرر إنزاله بقومه ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ ﴾[القمر: ٣٤].

كما جاء الجمع منها فى قوله تعالى وهو يبين جزاء طوائف من عباده الصالحين ﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧]، كما ورد فى سورة الذاريات قوله تعالى -وهو يتحدث عن المتقين الذين أُدخلوا جنات وعيونا لعبادتهم الكثيرة التى منها أنهم يستغفرون بالأسحار. ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[الذاريات: ١٨].

الغد:

وهو اليوم التالى لليوم الحالى وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم عندما نهى الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقرر فعل شىء فى الغد إلا أن يقول إن شاء الله عقب هذا التقرير، قال تعالى ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

وهذه الألفاظ تدل على أزمنة محددة نعرفها فى عصرنا، وقد عرفها الأقدمون قبلنا، وقد وردت هذه الألفاظ فى القرآن الكريم، فقد قرر الله أنه حدد عدد الشهور عنده يوم خلق السموات والأرض وجعلها اثنى عشر شهرا وكانت مسجلة فى اللوح المحفوظ، وجعل من هذه الشهور أربعةً حُرما؛ فقال تعالى ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾[التوبة: ٣٦]. وهذه الأشهر الأربعة -وكانت معروفة عند الجاهليين- هى ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب- ومعنى هذا أن المراد بالسنة هى السنة القمرية التى تعتمد على دوران القمر حول الأرض. وهى السنة التى كانت شائعة فى المنطقة وقت نزول القرآن. والسر فى وجود هذه السنة يوم خلق السموات والأرض أن الله عندما خلق السماء خلق الشمس والقمر اللذَيْن يعرف الناس بهما السنين والحساب. وجعل الله الأشهر الحرام لتكون فترات هدوء وكف عن الحروب بين الناس ليتفرغوا لأعمالهم وتجارتهم فلا يبغى فيها أحد على أحد- وهذا معنى قوله ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾[التوبة: ٣٦] ولكن العرب كانوا يتلاعبون بهذه الأشهر. يقول المفسرون: كان العرب أهل حروب وغارات، وكان القتال محرما عليهم فى الأشهر الحرم. فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك القتال، فيحلون الشهر الحرام ويحرمون مكانه شهرا آخر. فربما أحلوا المحرم وحرموا صفرا، حتى يكمل فى العام أربعة أشهر ليوافقوا عدة ما حرم الله. فكان رجلا من بنى كنانة مسئولا عن التأخير -ويسمى التأخير النسيء- فكان يأتى كل عام إلى موسم الحج على حماره فيقول: أيها الناس إنى لا أعاب ولا أجاب، ولا مرد لما أقول، إنا حرمنا المحرم وأخرنا صفرا، ثم يجيء العام التالى ويقول: إنا حرمنا

صفرا وأخرنا المحرم [١]. وقد وصف الله النسيء بأنه زيادة فى الكفر فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾[التوبة: ٣٧]. وقد ثارت مشكلة بين المشركين والمسلمين بسبب الشهر الحرام. فقد كان المسلمون فى سرية لهم. فرأوا بعض المشركين. وحدث بينهم قتال، وكان ذلك فى آخر يوم فى رجب فقتلوا منهم اثنين ظنا من المسلمين أن الشهر الحرام انتهى وانتهزها المشركون فرصة ليسيئوا إلى المسلمين، ولكن الله طمأن المسلمين وبين لهم أن ما فعله المشركون من كفر وصد عن المسجد الحرام، وإخراج المسلمين من مكة أكبر عند الله [٢]. فقال تعالى ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾[البقرة: ٢١٧].

وقد شدد الله على حرمة الشهر الحرام، وعلى عدم القتال فيه فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾[المائدة: ٢]. كما جعله مع الكعبة سببا فى نفعهم وازدهار تجارتهم فقال تعالى ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ . . ﴾[المائدة: ٩٧].

ولكن إذا انتهك الأعداء حرمة الشهر الحرام وقاتلوا المسلمين فيه، فعلى المسلمين أن يعاملوهم بالمثل، قال تعالى ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾[البقرة: ١٩٤].

ولم يذكر الله اسم شهر من شهور السنة إلا شهر رمضان لنزول القرآن فيه، ولفرض الصيام فيه فقال تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى

---

(١)نظر تفسير الطبرى.

(٢)نظر القصة بتفصيلاتها فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة.

لِلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ... ﴾[البقرة: ١٨٥].

وذكر أن فى شهر رمضان ليلة تعدل عبادتها عبادة ألف شهر وتزيد وهى ليلة القدر التى أنزل فيها القرآن ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ ﴾[القدر: ١-٣].

وقد استخدم الله الشهر فى القرآن الكريم تحديدا لبعض الأمور، منها العدة للمرأة فالتى يتوفى عنها زوجها تنتظر دون زواج أربعة أشهر وعشرة أيام قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾[البقرة: ٢٣٤].

وعدة المرأة التى بلغت سن اليأس ثلاثة أشهر وكذلك التى لم تحض بعد ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ [الطلاق: ٤].

كما جعل الله فترة الإيلاء -وهو أن يحلف الرجل ألا يقرب امرأته- أربعة أشهر فإما أن يقربها فى نهايتها أو يعتبر حلفه طلاقا. ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾[البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

وجعل فترة الأمان للمشركين المعاهدين الذين أعلنهم الله بالبراءة منهم أربعة أشهر فقال تعالى ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ ﴾[التوبة: ١-٢].

وجعل كفارة الظهار -وهو أن يجعل الرجل زوجته محرمة عليه كظهر أمه- صيام شهرين متتابعين قبل أن يتماسا ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ [المجادلة: ٤].

وكذلك كفارة القتل الخطأ.. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ

﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾[النساء: ٩٢] وقدر الله مدة الحمل والإرضاع بثلاثين شهرا. ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وكانت الريح المسخرة لسليمان مدة سيرها فى الذهاب شهرا وفى العودة شهرا ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[سبأ: ١٢].

وأما السنة والعام فقد ذكرا فى القرآن عدة مرات. بعضها فى حالة الإفراد فى آيات وبعضها فى حالة الجمع. والسنة هى العام كما نعرف لا فرق بينهما.

فذكر الله أن اليهود لسوء أعمالهم ولعدم إيمانهم بالبعث يتمنون لو عاشوا ألف سنة ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[البقرة: ٩٦] وقد حرم الله على اليهود دخول البيت المقدس لما خالفوا أمر نبيهم موسى أربعين سنة ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[المائدة: ٢٦]. وذكر أن نوحا مكث يدعو قومه إلى الإيمان ألف سنة إلا خمسين عاما ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[العنكبوت: ١٤].

وقد جمع الله السنة على صورة جمع المذكر السالم فى عدة آيات فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[الأعراف: ١٣٠].

وليس المراد بالسنين فى هذه الآية السنين الزمنية، ولكن المراد بها الجدب والقحط، فالعرب تقول: أصابتهم السنة، أى أصابهم الجدب، ولكن فى سورة يونس أراد السنين الزمنية عندما ذكر الله أنه قدر القمر منازل ليعلم الناس بها عدد السنين والحساب كما سبق ذكره. وكذلك فى سورة يوسف فى قوله تعالى ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[يوسف: ٤٢]. وقوله تعالى ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾[يوسف: ٤٧]. وفى سورة الكهف أيضا فى ذكر المدة التى قضاها أهل الكهف فى نومهم. ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى

كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾[الكهف: ٢٥]. وكذلك عند الحديث عن قضاء موسى فترة طويلة تقدر بالسنين فقال تعالى ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾[طه: ٤٠]. وقد بين الله أن هذه السنين تتراوح ما بين الثمانى والعشر كما شرط عليه والد الفتاة التى زوجها إياه وجعل مهرها أن يقضى موسى فى العمل عنده ثمان سنين أو عشرا. وقد عبر عن السنة بالحجة -وجمعها حجج- وهى من الألفاظ الدالة على السنة قال تعالى ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾[القصص: ٢٧]. وقد عير فرعون موسى بأنهم ربوه وهو صغير، وأقام لديهم مدة تقدر بالسنين ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨].

وقد حدد الله المدة التى ينتصر فيها الروم على الفرس بعد هزيمتهم منهم ببضع سنين -والبضع من ثلاث إلى تسع- فقال تعالى ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾[الروم: ٢-٤].

وكانت هذه من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم فقد هزم الروم الفرس بعد سبع سنين.

ونلاحظ أن القرآن لم يجمع السنة جمع مؤنث سالما، فلم يقل «سنوات» مع أن هذا الجمع صحيح لغويا وأما العام فلم يرد فى القرآن إلا مفردا، فقد ذكره الله لبيان المدة التى لبثها الرجل الذى كان عند القرية الخربة التى مر بها وتساءل كيف يحييها الله[١]» ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ

(١)انظر القصة مفصلة فى الجزء الأول من هذه الموسوعة.

﴿مِاْئَةَ عَامٍ﴾[البقرة: ٢٥٩].

وعندما فسر يوسف رؤيا الملك قال فى تفسيرها لرسول الملك ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[يوسف: ٤٩]. أى يأتى عام خصب ينزل فيه المطر. وتنضج الأعناب ويعصرها الناس. وقد مر بنا أن الله ذكر أن عمر نوح فى الدعوة إلى الله قبل الطوفان كان ألف سنة إلا خمسين عاما.

القرن:

القرن -كما نعرفه الآن- مائة سنة، ولكنه لم يكن معروفا عند أهل اللغة بهذا التحديد، بل اختلفوا فيه اختلافا كبيرا، فقالوا عشر سنين أو عشرون أو ثلاثون أو أربعون أو ستون أو ثمانون أو مائة سنة، ومن معانيه الأُمة وأهل الزمان الواحد، وقد جاء فى القرآن بهذا المعنى عدة آيات، فقال تعالى فى سورة طه على لسان فرعون مخاطبا موسى ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾﴾[طه: ٥١-٥٢]. وفى آخر السورة قال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾[طه: ١٢٨]. وشبيه بهذه العبارة ما ورد فى سورة السجدة ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾[السجدة: ٢٦]. ومعنى الآيتين أن الله يوبخ كفار مكة لغفلتهم عما أصاب الأمم قبلهم، بينما هم يمشون فى الأماكن التى عاشوا فيها وهم يسافرون إلى الشام للتجارة. وفى سورة هود ينعى الله على الأمم السابقة أنه لم يكن فيهم أهل فضل وعقل فينهوا المفسدين عن الإفساد فى الأرض إلا فئة قليلة كانت تفعل ذلك فأنجاهم الله من العذاب الذى أصاب المفسدين المجرمين. ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ

أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾[هود: ١١٦].

وفى سورة «المؤمنون» يأتى القرن والقرون بهذا المعنى أيضا. فبعد أن أهلك الله قوم نوح أوجد أمة أخرى لم تكن بأحسن حالا من سابقتها قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾[المؤمنون: ٣١] إلى أن يقول ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾[المؤمنون: ٤١-٤٤]. ومثل ذلك ما جاء فى سورة الفرقان ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ﴿٣٨﴾﴾[الفرقان: ٣٧-٣٨]

الحقب والأحقاب:

وكلا اللفظين يدل على مدة محددة من الزمن. ويقول أهل اللغة أن الحُقُب جمع حقبة وهى ثمانون سنة أو أكثر. وجمع الحُقُب أحقاب. وقد ورد كلا اللفظين فى القرآن ليفيدا الزمن الطويل. فموسى وهو يبحث عن مجمع البحرين ليلتقى عنده بالعبد الصالح - يقول لتابعه: لن أترك السير حتى أبلغ مجمع البحرين ولو قضيت فى ذلك زمناً طويلا ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ الكهف: ٦٠.

ويخبرنا الله أنه أعد للظالمين نار جهنم التى سيمكثون فيها أحقابا: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ النبأ: ٢١ - ٢٣

العُمر:

والعمر معناه هو المدة التى يقضيها الإنسان فى الحياة. ومعناه أيضا الزمن الطويل غير المحدد كما أخبرنا الله عن عناد المشركين وطلبهم من رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بقرآن آخر أو أن يبدله، فطلب منهم أن يخبرهم أنه لا يمكن له أن يبدل القرآن من تلقاء نفسه، لأنه لا يقول إلا ما يوحيه الله إليه، ولو أراد الله ألا يقرأ عليهم محمد القرآن، وألا يعلمهم بذلك لفعل أى كان لا يبعث رسوله أصلا -واستدل على صدقه على ما يقول بأنه لبث فيهم زمنا طويلا قبل أن ينزل عليه القرآن، فلم يخبرهم بشىء حتى أوحى الله إليه قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾[يونس: ١٥-١٦].

الحين:

تأتى لتدل على زمن مبهم غير محدد يحتمل أن يكون طويلا أو قصيرا. وقد تضاف فيتحدد وقتها بما تضاف إليه. وقد جاءت بهذين المعنيين فى القرآن الكريم.

فمن الأول -وهو الزمن غير المحدد قوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ البقرة: ٣٦ .

والخطاب لآدم وزوجه وما ينشأ لهما من ذرية، «وحين» تعنى طول الحياة الدنيا.

ومثلها آية الأعراف (٢٤) وقول قوم نوح عن نبيهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ المؤمنون: ٢٥.

«وحين» تعنى إلى أن يموت أو يتركهم لأى سبب. وقوله تعالى فى قصة يونس لما أنجاه من بطن الحوت وأرسله إلى قومه الذين يزيدون على مائة ألف فآمنوا به فمتعهم إلى أن ماتوا. قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ الصافات: ١٤٧ - ١٤٨.

وما أشبه ذلك من الآيات التى وردت فيها (حين) دون إضافة.

وأما المعنى الآخر الذى يتحدد فيه وقت «حين» عن طريق الإضافة فقد ورد أيضا فى آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾ المائدة: ١٠٦.

«فحين هنا» محددة بوقت الوصية عند احتضار الموصِى. وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ هود: ٥[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ النحل: ٦.

---

(١) والله يقرر فى هذه الآية أنه يعلم أسرار العباد مهما حاولوا إخفاءها، فهم حين يغطون أنفسهم بثيابهم يعلم ما تحت الثياب وما فوقها، وهذا رد على محاولة المنافقين الاختباء من الله عندما يعصونه.

فالآية توضح وقت ظهور جَمال الأنعام من إبل وبقر وغنم وهو حين عودتها من المرعى، وحين ذهابها فى الصباح إلى المرعى. فى هذين الوقتين يشعر المشاهد بجمالها وهى تسير فى صفوف متجانسة. وقوله تعالى: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان: ٤٢.

فوقت معرفتهم ما هم فيه من ضلال (حين) يرون العذاب.

الماء

والماء هو أول مخلوقات الله كما نفهم من القرآن الكريم. فقد نبأنا الله فى سورة «هود» أنه عندما خلق السموات والأرض كان عرشه على الماء: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ هود: ٧.

وقد ذكر الله أيضا فى القرآن أن الماء أساس الحياة كل حياة فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأنبياء: ٣٠. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾النور: ٤٥.

ويذكر الدكتور عبد الخالق أبو شبانة مدير الأبحاث بجامعة نيويورك[1] أن الماء يكون ٥٥٪ من وزن الإنسان، و٦٥٪ من وزن الإنسان النحيف.. والماء موجود فى داخل الخلايا وفى أماكن أخرى خارج الخلايا، جزء منه فى الأغشية التى تحيط بالخلايا، وجزء فى بلازما الدم أو مصله الحيوى أى السائل الذى يحمل كرات الدم الحمراء والبيضاء..»

وقد ذكر الله أن الإنسان خلق من ماء دافق أى مُنْصَبّ بقوة وسرعة قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝﴾ الطارق: ٥ - ٦، وهو المنى كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴾ القيامة: ٣٧.

كما قال فى آية أخرى فى سورة السجدة: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن

(١) الأهرام ٣٠/ ١٢/ ٩٨.

مَآءٍ مَّهِينٍ ﴾ السجدة: ٨ ومثل ذلك فى سورة المرسلات: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ المرسلات: ٢٠، والمراد به المنيّ وآدم أبو البشر خلق من ماء فقد أخبرنا الله أنه خلق من طين: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ ص: ٧١ والطين تراب ممزوج بماء.

أنواع الماء:

والماء نوعان ماء عذب وهو الذى تجرى به الأنهار، ويوجد فى الجداول والغدران وبعض البحيرات. وماء ملح وهو ماء البحار وبعض البحيرات.

الأنهار:

وقد ورد ذكر الأنهار فى القرآن، ولكن فى معظم الآيات كانت تجيء لتعبر عما ينعم به المتقون فى الآخرة. فقد ورد فى وصف الجنة أنها تجرى من تحتها الأنهار وتكرر ذلك فى عشرات الآيات. كما ورد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ القمر: ٥٤.

وأما الأنهار فى الدنيا فقد وردت فى عدة آيات ومنها قوله تعالى وهو يتحدث عن قسوة قلوب اليهود ويشبهها بالأحجار وإن كانت الأحجار أقلَّ منها قسوة لأن الحجارة يتفجر منها الأنهار. قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ البقرة: ٧٤ والآية تشير إلى منابع الأنهار التى يكون معظمها فى الجبال.

ويعتبر أهل الدنيا أن من أعظم النعم أن يكون للإنسان حدائق مثمرة تحيط بها الأنهار قال تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ البقرة: ٢٦٦.

وذكر الله فى مقام تخويف مشركى قريش - أن أمما كثيرة سبقتهم قد أغدق الله عليهم الكثير من نعمه، وجعل لهم سلطانا فى الأرض لم يتح لقريش، فكان المطر ينزل عليهم كثيرا فتخصب أرضهم، وكانت الأنهار تحيط بهم ولكنهم عصوا ربهم، ولم يؤمنوا به ويشكروا نعمه فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم وأنشأ بعدهم أمما أخرى: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾ الأنعام: ٦.

وتحدى المشركون الرسول محمدًا صلى الله عليه وسلم أنهم لن يؤمنوا إلا إذا فجر لهم ينبوع ماء من الأرض أو تكون له جنة -حديقة- حافلة بالنخيل والأعناب وتحيط بها الأنهار من كل جانب. قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا﴾ الإسراء: ٩٠ - ٩١.

وضرب الله مثلا للرجل الغنى البَطِر الذى لا يشكر نعمة الله عليه التى منها أن الله رزقه بجنتين من أعناب يحيط بهما النخل وبينهما زروع، وكانت كلتا الجنتان تثمر ثمرها دائما لا تتخلف، وكان بين الجنتين نهر. قال تعالى: ﴿ ۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ۝٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴾ الكهف: ٣٢ - ٣٣.

وكان فرعون يتباهى بملكه فى مصر، وبالأنهار التى تحيط بقصوره فينادى قومه ويطلب منهم الإقرار بهذه الحقيقة. قال تعالى ﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ الزخرف: ٥١.

وقد ذكر الله أن من نعمه على عباده أنه سخر لهم الأنهار -أى جعلها ذات نفع لهم فى الشرب والانتقال والصيد وما إلى ذلك- ضمن نعم كثيرة أخرى فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ إبراهيم: ٣٢.

وفى سورة النحل مثل ذلك: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ النحل: ١٥.

وقد ذكر الله أنه أنزل من السحاب المطر على حسب الحاجة لا كثيرا فيفسد الأرض ولا قليلا فلا يكفى الزروع والثمار، وجعله ثابتا مستقرا فى الأرض لينتفع به الناس وقت الحاجة -مثل الأنهار والمياه الجوفية- ثم هدد الناس بأنه قادر على تغوير هذا الماء فى الأرض فلا ينتفع به أحد قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ المؤمنون: ١٨.

ولا يعترض أحد بما يحدث أحيانا من سيول تغرق القرى، وتتلف الزروع والثمار، أو من جدب يحدث القحط والمجاعة، فهذه أوقات استثنائية قليلة يختبر الله بها عباده، ويذكرهم بقدرته عليهم.

كما امتنَّ الله على عباده بهذا الماء الذى يشربون منه، فذكَّرهم بفضله عليهم فى إنزاله من السحاب ولا يستطيع أحد أنه قادر على فعل ذلك. وقد كان فى قدرة الله أن يجعله شديد الملوحة، فلا يستطيع أحد أن يشرب منه. فعلى الناس أن يقدروا هذه النعمة التى أنعم الله بها عليهم. فيؤمنوا به وحده ويشكروا له فضله.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ الواقعة: ٦٨ - ٧٠.

البحار:

والبحر ماؤه ملح، ويتميز بالضخامة والاتساع فمياه البحار -كما نعلم- تكوّن ثلاثة أرباع الأرض. وقد ورد ذكر البحر فى عدة آيات من القرآن الكريم بعضها يمتن الله فيها على عباده أن سخر لهم البحر لتجرى فيه سفنهم، وليأكلوا من لحمه الطرى -لحم السمك- وليستخرجوا منه الحلى من لؤلؤ ومرجان. فجعل الله من علامات قدرته وربوبيته ودلائل نعمه على عباده خلق السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار واختلاف حال كل منهما، وجريان الفلك فى البحر بما فيه نفع للناس وفائدتهم إلى غير ذلك من دلائل القدرة قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ .... لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ البقرة: ١٦٤.

وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ إبراهيم: ٣٢ وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل: ١٤.

وقال تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ الإسراء: ٦٦.

وسبق أن ذكرت أن المراد بابتغاء الفضل التجارة. فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ الحج: ٦٥.

وعد من علامات قدرته تلك السفن الضخمة التى تجرى فى البحر كالجبال فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ الشورى: ٣٢.

وكرر هذه العبارة باختلاف يسير فقال تعالى فى سورة الرحمن: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ الرحمن: ٢٤.

ويُذكر البحر فى آيات أخرى إثباتا للفطرة المستكنة فى نفوس البشر جميعا التى تؤمن بالله وحده وبقدرته المطلقة، فيذكر الله أن الناس إذا تعرضوا لخطر الغرق فى البحر، وهم مسافرون فى السفن، ينسون كل شريك لله، ولا يذكرون إلا الله وحده فهو القادر على إنجائهم. ولكن لأن الإنسان كفور يعود إلى الشرك كما كان من قبل. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ الإسراء: ٦٧.

وعبر فى آية أخرى عن هذا المعنى فبين أنه هو الذى يمكن الناس من السير فى البر والبحر. ثم ذكر حالهم فى البحر عندما يركبون السفن وتسير بهم فى أول الأمر فى جو ملائم، وريح هادئة لينة، فتمتلئ قلوبهم سرورا وسعادة بما ينعمون به من أمن. ثم يفاجئون بالريح وبالأمواج العالية تحيط بهم من كل مكان ويظنون أن الهلاك لابد واقع بهم، فلا يجدون ملجأ إلا الله يتجهون إليه بقلوبهم، ضارعين مبتهلين، وقد تخلصت قلوبهم من كل شائبة شرك. ويعاهدونه على أنه إذا أنجاهم هذه المرة فلن يشركوا به بل يشكروه.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ يونس: ٢٢.

وورد هذا المعنى أيضا فى سورة العنكبوت فى قوله تعالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ

دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ العنكبوت: ٦٥.

ولم يذكر فى هذه الآية الأهوال التى أحاطت بهم فى البحر كما ذكر فى سورة «يونس» ربما إيجازا، وربما لبيان أن البحر مخوف بطبيعته حتى ولو لم تصحبه أهوال. ولكنه ذكر هذه الأهوال بالإجمال فى سورة لقمان فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ لقمان: ٣٢.

فالله يبين فى هذه الآية أن الناس بعد نجاتهم بقى بعضهم على كفره وهو الختار الكفور. أى الغدَّار الكافر بنعمة الله، ومنهم متوسط الحال بين الكفر والإيمان.

وقد بين الله أهوال البحر، وضخامة أمواجه فقد شبهها بالجبال فى الآية السابقة، فالظلل فى هذه الآية معناها الجبال.

كما ذكر الله سبحانه وتعالى ظلمات البحر المتتابعة كلما تعمقنا فيه. وذلك فى تشبيه أعمال الكافرين الصالحة فى الدنيا التى لن تجديهم شيئا فى الآخرة بالسراب أو بالظلمات فى بحر شديد العمق لا يدرك قعره وقد ثارت أمواجه، وركب بعضها فوق بعض، فقال تعالى: ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا ﴾ النور: ٤٠.

لقد أثبت العلم الحديث دقة هذا الوصف الذى وصف الله به البحر، قال بروفيسور دورجاروا أستاذ علم جيولوجيا البحر، عندما قرئ عليه معنى هذه الآية قال: لقد كان الإنسان فى الماضى لا يستطيع أن يغوص بدون استخدام الآلات أكثر من عشرين مترا، ولكننا نغوص الآن فى أعماق البحار بواسطة المعدات الحديثة فنجد ظلاما شديدا على عمق مائتى متر. وأعطتنا اكتشافات أعماق البحار صورة لمعنى

قوله تعالى ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ فالمعروف أن ألوان الطيف سبعة منها الأحمر والأزرق والأصفر والبرتقالى إلى آخره. فإذا غصنا فى أعماق البحار تختفى هذه الألوان واحدا بعد الآخر. فاختفاء كل لون يعطى ظلمة، فالأحمر يختفى أولا ثم البرتقالى ثم الأصفر. وآخر الألوان اختفاء هو اللون الأزرق على عمق مائتى متر. وكل لون يختفى يعطى جزءا من الظلمة حتى تصل إلى الظلمة الكاملة. أما قوله تعالى ﴿مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾ فقد ثبت علميا أن هناك فاصلا بين الجزء العميق من البحر والجزء العلوي، وأن هذا الفاصل مليء بالأمواج، فكأن هناك أمواجا على حافة الجزء العميق المظلم من البحر، وهذه لا نراها، وهناك أمواج على سطح البحر وهذه نراها. فكأنها موج من فوقه موج. وهذه حقيقة علمية مؤكدة ولهذا قال البروفيسور دورجاروا عن هذه الآيات القرآنية هذا لا يمكن أن يكون علما بشريا[(١)].

وقد قرن الله بين البر والبحر فى عدة آيات ليبين شمول الأمر للكون كله بره وبحره فقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ الأنعام: ٥٩.

وطلب من الناس أن يعترفوا بأنه لا أحد ينجيهم من ظلمات البر والبحر إلا الله: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الأنعام: ٦٣. ومثلها قوله تعالى فى سورة النمل ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ النمل: ٦٣. كما امتن على عباده أنه جعل لهم النجوم ليهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ الأنعام: ٩٧.

---

(١) الأدلة المادية على وجود الله ص ١٣٣.

وذكر أنه كرم بنى آدم وحملهم فى البر والبحر﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ﴾ الإسراء: ٧٠

وذكر الله أن الفساد ظهر فى البر والبحر بسبب عصيان الناس ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الروم: ٤١.

فى كل الآيات السابقة جاء لفظ البحر بصيغة المفرد لأن الله يريد به الجنس فهو يشمل كل البحار. ولكنه جمعه على لفظ بحار فى آيتين وكلتاهما متصلتان بأهوال الآخرة، وما سيحدث فيها للبحار، عندما تنفجر فيختلط بعضها ببعض وتسجر أى تمتلئ نارا. قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ التكوير: ٦.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ الانفطار: ٣.

كما جاء جمعها على أبحر وذلك عندما أراد الله أن يعبر عن سعة علمه وكثرة حكمه، وعجائب أمره التى سماها كلمات الله، ويبين أنها لا تنفد أبدا، فمثل لنا صورة تبين هذه السعة، وعدم قابليتها للنفاد: وهى أن نتخيل أن كل شجرة فى الأرض تحولت فروعها إلى أقلام، وأن كل بحر فى الأرض تحول ماؤه إلى مداد يكتب به، وكل بحر يمده ويرفده سبعة أبحر وكتب بكل ذلك كلمات الله لم تنفد كلمات الله. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٞ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٖ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ ﴾ لقمان: ٢٧.

وقد ورد قريب من هذا المعنى أيضا فى سورة الكهف ولكن بلفظ بحر قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ الكهف: ١٠٩.

البحران:

وقد ورد البحر أيضا مثنى فى القرآن، ويقصد بهما البحر والنهر على جهة التغليب كما يقال: القمران ويقصد بهما الشمس والقمر، والعمران ويقصد بهما أبو بكر وعمر. وقد أوضح الله ذاك فى سورة «فاطر» حيث بين أن طبيعة كل منهما مختلفة، فهذا عذب شديد العذوبة، وهو النهر، وذاك ملح شديد الملوحة وهو البحر، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فاطر: ١٢.

والفرات هو شديد العذوبة، والسائغ شرابه هو الذى يسهل انحداره فى الحلق لعذوبته، وأما الأجاج فهو الذى يحرق الحلق لملوحته، ولكن مع ذلك فهناك أشياء مشتركة بينهما كما تقرر الآية بعد ذلك، فمن كل منهما يصطاد الناس السمك وغيره من الحيوانات البحرية ويأكلونها وهى لحم طرى، ويستخرج من البحار الحلية التى يتحلى بها الناس من لؤلؤ أو مرجان. وكذلك تشق السفن عباب الأنهار والبحار حاملة الناس وبضائعهم: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ فاطر: ١٢.

أما أكل الأسماك وجريان الفلك فلا جدال فيهما فهما من خيرات النهر والبحر معا. ولكن ماذا بالنسبة للؤلؤ والمرجان؟ ونحن نعرف أنهما لا يوجدان إلا فى البحر. وقد تكرر هذا المعنى فى سورة الرحمن فى قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ الرحمن: ٢٢.

وقد أجاب عن هذا القرطبى فى تفسيره هذه الآية قائلا: وقال: منهما وإنما يخرجان من الملح لا العذب، لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما كقوله تعالى: ﴿

يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾ الأنعام: ١٣٠.

وإنما الرسل من الإنس دون الجن قاله الكلبى وغيره. وقال الزجاج فقد ذكرهما الله فإذا أُخرج من أحدهما شىء فقد أخرج منهما. وهو كقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا ﴾ نوح: ١٥ - ١٦.

والقمر فى سماء الدنيا، ولكن أجمل ذكر السبع فكأن ما فى إحداهن فيهن، وقال أبو على الفارسى هذا من باب حذف المضاف، أى من أحدهما كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ الزخرف: ٣١ والمراد إحدى القريتين.

مرج البحرين:

والمرج فى اللغة التخلية والإرسال والإهمال يقال: مرج السلطان الرعية أى أهملهم، وتركهم لشأنهم. ويقال مَرَجَ بمعنى خلط[1]. وقد ورد مرج البحرين فى سورتين من سور القرآن، الأولى: الفرقان حيث قال تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴾ الفرقان: ٥٣.

ومعنى الآية أن الله سمح باختلاط ماء الأنهار العذب، وماء البحار الملح، وذلك عند مصابِّ الأنهار فى البحار، ولكنه جعل بين الماءين حاجزا يحول دون تغيير أحدهما طبيعة الآخر فيظل العذب عذبا والملح ملحا.

السورة الأخرى هى سورة الرحمن حيث قال تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴾ الرحمن: ١٩ - ٢٠.

ولكن ما هذا البرزخ - الحاجز بين الماءين - والذى ذكره القرآن: يقول

---

(١) انظر تفسير القرطبى.

وحيد الدين خان فى كتابه الإسلام يتحدى[1] : إن هذه الظاهرة الطبيعية كانت معروفة عند الإنسان القديم، ولكنه لم يكتشف قانونها إلا منذ بضع عشرات من السنين. فقد أثبتت المشاهدات والتجارب أن هناك قانونا ضابطا للأشياء السائلة يسمى قانون «المط السطحى» Surface Tension وهو يفصل بين السائلين لأن تجاذب الجزيئات يختلف من سائل لآخر. ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله فى مجاله.. وهذا القانون هو الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾.

ولكن لماذا لم يصرح القرآن بذكر هذه الحقيقة العلمية؟ يجيب على هذا السؤال الأستاذ وحيد الدين بأن القرآن لم يكن كتابا فى العلوم والهندسة. ولذلك لو أنه بدأ يكشف عن أسرار الطبيعة لاختلف الناس فيما بينهم حول ما جاء فى القرآن الكريم ولاستحال عندئذ بلوغ الهدف الحقيقى من نزول القرآن، وهو إصلاح العقل الإنسانى وتزكيته، فمن إعجاز القرآن أنه تكلم فى لغة العلم قبل كشفه كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم تستوحشها أذواق الأقدمين، ولا معارفهم على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث.

وقد ذكر الله هذا الحاجز مرة ثالثة فى سورة النمل وهو يتكلم عن قدرة الله التى جعلت الأرض مستقرة ممهدة، وجعل خلالها أنهارا، وجعل فيها جبالا، وجعل بين البحرين حاجزا، قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ النمل: ٦١.

---

(١) صـ ١٢٤.

الْيَمّ

وهو فى اللغة البحر. وقد أطلق فى القرآن على البحر الأحمر، وعلى النيل، ربما لأن النيل عظيم الطول واسع فاستعير له لفظ اليم وقد ورد استخدام هذا اللفظ بمعنييه فى قصة موسى عليه السلام. فقد طلب الله من أم موسى أن تلقيه فى النيل كى لا يقتله فرعون: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۝ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ طه: ٣٨ - ٣٩

ومثل هذه الآية قوله تعالى مخاطبا أم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ القصص: ٧ والمراد باليم فى الآيتين نهر النيل.

وأما اليم بمعنى البحر فقد ذُكر فى أثناء الحديث عن غرق فرعون وجنوده فقد غرقوا فيه عندما طارد موسى وقومه، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر فينفلق وتتحول أجزاء منه إلى طريق يابس اجتازه موسى وقومه فنجوا وأراد فرعون وجنوده اجتيازه وراءهم فأطبق الله عليهم البحر. وقد ورد الحديث عن ذلك فى عدة آيات

﴿.. فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف: ١٣٦﴿... فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ طه: ٧٨.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ القصص: ٤٠

وتكررت هذه الآية بألفاظها فى سورة الذاريات (٤٠). والمراد باليم هنا البحر الأحمر أو ما كان يعرف ببحر القلزم.

كما وردت لفظة «اليم» فى حادثة أخرى متصلة بموسى أيضا، ولكن مع

شخصية أخرى هى شخصية السامرى الذى صنع لقومه عجلا من ذهب، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، فوبخه موسى وأعلن أنه سيحرق هذا العجل ونسفه فى اليم نسفا، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ طه: ٩٧.

الرياح والسحاب والبرق والرعد والمطر:

هذه ظواهر طبيعية متصل بعضها ببعض، وقد تحدث الله عنها فى القرآن الكريم كثيرا ليبين مظاهر قدرته وآثار رحمته فى الأرض، وعميم خيره على عباده، فكثير من هذه الآيات يبين مصدر الماء العذب فى الأرض فنحن نعرف أن الماء الملح مخلوق من الكرة الأرضية يوم خلقها الله، وأعدها للحياة، وهو يكوِّن ثلاثة أرباع الأرض، والربع الباقى هو اليابسة، ونعرف أن الماء العذب ينشأ من تبخر الماء الملح بفعل حرارة الشمس فيتصاعد البخار إلى طبقات الجو فينشأ السحاب ويتكاثف، ثم يسقط مطرا، وقد يتخلل هذه العملية رعد وبرق وصواعق وإلى كل هذا أشار القرآن الكريم فى آيات مختلفة.

الرياح: فقد ذكر فى سورة الروم طريقة تكون الماء ونزوله مطرا وأثر ذلك فى الناس فالله يرسل الرياح، فتؤدى إلى انتشار السحاب فى السماء بأحجام مختلفة فبعضها كثير متكاثف، وبعضها قليل متفرق، طبقا لمشيئة الله وإرادته، فإذا نزل المطر فى المكان الذى شاء الله أن ينزل فيه فرح أهله واستبشروا بقرب الخير الذى سينشأ عنه خصب الأرض، وخروج الزروع المختلفة. وإن كانوا قبل نزوله فى حيرة من أمرهم: ماذا يفعلون لو تأخر عنهم المطر؟ قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا

فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا[1] فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ الروم: ٤٨ - ٤٩ .

ولم يذكر الله هذه الحقيقة ليعلم الناس شيئا من مظاهر نعمه عليهم فحسب، بل ليثبت لهم قدرته على إحياء الموتى فهذا المطر نزل على أرض ميتة أى جدبة لا نبات فيها، فأحياها بإخصابها وإخراج نباتها فكذلك يفعل بالموتى فيحيهم بعد موتهم. قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ الروم: ٥٠.

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ فاطر: ٩.

وقد ذكر الله أنه يرسل الرياح لتبشر الناس برحمة الله لهم بإنزال المطر الذى يخصب أرضهم، وينشر الرخاء بينهم، فقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الأعراف: ٥٧.

فالله يبين فى هذه الآية أنه يرسل الرياح لتبشر الناس بقرب نزول المطر، ثم تكوّن سحابا مثقّلا بالماء، فيسوقه الله إلى أرض جدبة فينزل منه المطر الذى يُخرج من كل أنواع الزروع والثمار، ثم يذكر الله الهدف من ذكر هذه الحقيقة - كما فعل فى سورة الروم - وهو قدرته على إحياء الموتى يوم القيامة: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ

---

(١) قطعا.

تَذَكَّرُونَ ﴾الأعراف: ٥٧.

وكرر الله المعنى الأول من الآية السابقة مع بعض الاختلاف فى التعبير فذكر أنه أرسل الرياح لتبشر بقرب نزول المطر. ثم أنزلنا منها المطر وهو ماء طهور. وقد حددت الآية هدفين لنزول المطر هما إحياء الأرض الجدبة، وسَقْى الناس والحيوان من مخلوقات الله الكثيرة، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ الفرقان: ٤٨ - ٤٩.

وكذلك قال تعالى - فى سورة النمل - سائلا المشركين ليقروا بربوبيته ووحدانيته: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ النمل: ٦٣.

كما قال تعالى فى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الروم: ٤٦.

ولما كانت الرياح هى التى تنشئ السحاب، فتمتلئ بالمطر، جعلها الله لواقح جمع لاقحة، أى تلقح المطر فيوجد الماء، كما يحدث من تلقيح النبات فيخرج الثمر قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ الحجر: ٢٢.

ونفهم معنى آخر من وصف الرياح بأنها لواقح -إلى جانب المعنى الذى أوردته الآية، وذلك بعد تقدمت الكشوف العلمية المتصلة بالنبات- وهو أن الرياح تحمل حبوب اللقاح إلى النبات فيثمر ويخرج الزرع.

ولما فى إثارة الرياح، وإنشاء السحاب المعلق بين السماء والأرض من دلائل قدرته

التى لا يفطن إليها إلا من يستخدم عقله فى التفكير فى خلق الله. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ البقرة: ١٦٤.

إلى أن يقول: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: ١٦٤.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الجاثية: ٣.

ثم يقول بعد ذلك ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ الجاثية: ٥.

والآيات السابقة كلها تتحدث عن الرياح بصيغة الجمع، فماذا عن الريح بصيغة المفرد؟ لقد وردت أيضا فى آيات كثيرة، ولكنها فى معظمها تتكلم عن الريح فى حالتها المدمرة المهلكة، وندر ورودها فى القرآن لتدل على خير إلا فى آيتين اثنتين وهما ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ يونس: ٢٢.

ولكن الآية لم تنته حتى ذكرت نقيضها ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ يونس: ٢٢

والآية الأخرى تحدث عن تسخير الله الريح لسليمان فى قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ ص: ٣٦ فالرخاء هى الهادئة اللينة.

وأما الريح الموصوفة بالتدمير والإهلاك فجاءت فى آيات كثيرة. منها: قوله تعالى وهو يتحدث عن صدقات الكفار فى الدنيا فيشبهها بريح شديدة البرودة لشدتها يصدر عنها صوت مزعج وقد أصابت هذه الريح زرع قوم ظالمين فأهلكته: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ آل عمران: ١١٧.

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ ﴾ إبراهيم: ١٨.

وقوله تعالى وهو يتوعد الكفار بقدرته عليهم وإهلاكهم، فلا ينبغى لهم أن يغتروا بنجاتهم من أهوال البحر، وعدم شكرهم الله على ذلك فإنه قادر على أن يخسف بهم الأرض، وقادر أيضا على أن يعيدهم فى البحر مرة أخرى، ثم يرسل عليهم ريحا شديدة لا تمر بشيء إلا قصفته أى أهلكته فتغرقهم بسبب كفرهم ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ الإسراء: ٦٩.

وعندما انقطع المطر عن قوم هود فترة طويلة وأجدبوا أخذوا ينظرون إلى السماء فرأوا سحابا فى عرض السماء فاستبشروا به وقالوا سيمطرنا، فقال لهم نبيهم بل هو عقاب الله لكم فلم ينشأ عنه إلا ريح تحمل العذاب المؤلم لكم﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ الأحقاف: ٢٤ - ٢٥.

وقد كرر الله عذاب قوم هود بالريح فى عدة آيات منها ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ الذاريات: ٤١.

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ الحاقة: ٦.

فالرياح فى القرآن بشير الخير، والريح وسيلة الشر والإهلاك.

وقد أقسم الله بالريح بغير لفظها بل بصفة من صفاتها. فأقسم بالرياح المتتابعة كَعُرْف الفرس يتلو بعضها بعضا وبالرياح العاصفة التى تعصف بكل شيء أمامها.

ثم بالرياح التى تنشر المطر نشرا أى تفرقه أى تنزله على أماكن متفرقة.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ المرسلات: ١ - ٣

وقد سمى الله السورة التى ورد فيها هذا القسم بالمرسلات.

ومثل هذه قسمه الله بالرياح التى تذر التراب والرمل وغيرهما عندما تشتد وسماها الذاريات فقال تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴾ الذاريات: ١.

وسمى السورة التى بدأها بهذا القسم الذاريات.

السحاب:

اقترنت السحاب مع الرياح فى آيات كثيرة ذكرتها فى الفصل السابق، وسبب ذلك أن السحاب تنشأ عن الرياح. ولكنها انفردت فى آيات أخرى أعرض لها الآن.

ففى آيتين فى سورة الرعد جمع الله بين كثير من الظواهر الطبيعية هى البرق والسحاب والرعد والصواعق. فالله يظهر البرق للناس، فيتنازعهم الخوف والطمع، الخوف من أن تكون فيه صواعق تهلكهم، والطمع فى أن يكون فيه مطر يخصب أرضهم، ثم ينشئ الله لهم السحاب الممتلئ بالماء، فيبدو مثقلا به. وأما الرعد فقد ذكر الله أنه يسبح بحمد الله -مشتركا بذلك مع الملائكة الخائفين من جبروت الله. وأما الصواعق فيرسلها الله على من يشاء من عباده ممن يريد إهلاكهم لأمر يعلمه. ومع أن كل هذه الظواهر الطبيعية تدعو إلى الخشوع لله. والإقرار بربوبيته نجد المشركين الذين عميت بصائرهم فلم تنتفع أبصارهم بما ترى- نجدهم يجادلون فى الله، ويشككون فى وحدانيته.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى

ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ الرعد: ١٢ - ١٣.

ولكن كيف يسبح الرعد بحمده؟ يسبح كسائر المخلوقات التى خلقها الله وأخبر أنها تسبح بحمده: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ الإسراء: ٤٤.

فقد أودع الله فى كل مخلوقاته القدرة على إدراك عظمته وربوبيته، وقد ورد فى القرآن أن الله خاطب بعض مخلوقاته الجامدة، وفهمت عنه وأجابته كقوله تعالى فى سورة فصلت﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ فصلت: ١١.

وكذلك عندما عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ الأحزاب: ٧٢.

ويقال أيضا إن هذه المخلوقات تسبح بلسان الحال أى بدلالتها على قدرة الله وعظمته، ولكن لماذا اختص الله الرعد بالتسبيح. ربما لأن هذه الظواهر بما تصدره من صوت مجلجل يثير الرعب فى النفوس، تدل على قوة وجبروت، فأخبر الله أنها تخضع لجبروت الله فتسبح بحمده.

وكما وصف الله السحاب «بالثقال» فى هذه الآية وصفه أيضا بذلك فى آية سبق ذكرها فى فصل الرياح ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ الأعراف: ٥٧.

ولوصفه بالثقال أهمة كبيرة لأنه يريد السحاب المحمل بالماء، لأنه هو الذى ينزل المطر.

وقد فصل الله – فى سورة النور – الحديث عن السحاب وما ينشأ عنه فالله يسوق السحاب، ثم يجمع بين متفرقه، ثم يكثفه فيجعله متراكما بعضه فوق بعض، ويسمِّى

الفلكيون هذه السحب سحبا ركامية) وهذه السحب الركامية يخرج المطر من ثناياها، وقد سماها الله سماء لعلوها، ويشبهها بالجبال لضخامتها، وهى التى ينزل منها الْبَرَدُ، وهو كرات الثلج، فيصيب الله بضرر هذا البرد من يشاء من عباده انتقاما أو ابتلاء، فيتلف زرعهم ويهلك أنعامهم، ويصرفه عمن يشاء من عباده نعمة أو استدراجا، فلا ينالهم ضرر، وهذه السحب المتراكمة تفرغ شحنات كهربية يصدر عنها ضوء شديد التوهج واللمعان، حتى لتكاد شدة لمعانه تعمي الأبصار.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ النور: ٤٣.

يقول الدكتور جمال الدين الفندى معلقا على هذه الآية[١]: تقص علينا هذه الآية قصة السحب الركامية وما تجود به من برَد، وما يحدث فيها من برق وأسباب ذلك البرق والسحب الركامية هى التى تنمو فى الاتجاه الرأسى، وربما سميت ركامية نظرا لتراكمها فى طبقات بعضها فوق بعض، وهناك نوع آخر من السحب ينتشر عادة فى الاتجاه الأفقى، فيغطى السماء بأكملها بطبقة متصلة من السحاب الطبقى، وتسمى أيضا «بساطية» ولا تحدث فيها عواصف «الرعد» ولا البرد وهى المعنية بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ الروم: ٤٨.

ومن مزايا السحب الركامية أنها قد تمتد رأسيا إلى علو خمسة عشر كيلو مترا أو أكثر. وبذلك تظهر لمن ينظر إليها من بُعد كالجبال الشاهقة، وتتيح فرصة النمو فى الاتجاه الرأسى نشوء السحب الركامية عبر طبقات من الجو تختلف درجات حرارتها

---

(١) الكون بين العلم والدين ص ٤٣/ ٤٦.

اختلافا كبيرا، فتنشأ بذلك الدوامات الرأسية، ويتولد البرَد، ولهذا فإن السحب الركامية هى وحدها التى تجود بالبرَد.

وعندما استخدم العلماء الرادار فى تصوير مراحل تكوين السحب الركامية تبين لهم أن السحابة إنما تبدأ على هيئة خلايا أو وحدات من السحب التى تثيرها تيارات الهواء الصاعد، ويعقب ذلك أن تتخذ كل خليتين أو أكثر مكونة من السحب الركامية.

ورغم أن الإنسان لم يتوصل إلى هذه الحقيقة الرائعة إلا منذ عشرات السنين فقط نجد أن القرآن يقررها ببساطة من غير جلبة أو ضوضاء إذ يقول﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ النور: ٤٣ .

«وهكذا يصور لنا الجزء الأول من الآية مراحل تكون السحب الركامية ثم يخصصها بالنمو الرأسى حتى تصير كالجبال، وهناك تجود دون غيرها من السحب بالبرَد، وليس من اللازم أن يتساقط البرد من السحابة بمجرد تكونه، إذ ربما يحول تيار الهواء الصاعد دون نزوله فى مكان معين، حتى إذا ما ضعف هذا التيار هوى البرد على هيئة رخات لا هوادة فيها.. وهذا ما يفسر لنا المراد بقوله تعالى ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ﴾ النور: ٤٣.

ومن أهم صفات هطول البَرَد حدوث الرعد الذى لا يحدث إلا مع السحب الركامية ومع الرعد يكون البرق كما قال تعالى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ النور: ٤٣.

فالضمير يعود إلى البَرَد، والبرق هو التفريغ الكهربى الذى يحدث الرعد.

هذا ومن أظهر أضرار البرق الإصابة بالعمى المؤقت –ويحدث ذلك كثيرا للطيارين الذين يطيرون بين هذه السحب– وقد عبر القرآن عن ذلك أحسن تعبير فى

قوله تعالى ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ النور: ٤٣.

هذه التفاصيل العلمية التى لم يكشف عنها إلا فى عصر الذَّرَّة أتى القرآن بجانب منها وهناك العديد من الآيات التى سوف يكشف العلم عما بها من إعجاز علمى يدل على أن القرآن معجزة الله الخالدة».

وقد سمى الله السحب المحملة بالمطر بالمزن كقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾ الواقعة: ٦٩.

كما سماها المعصرات فقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾ النبأ: ١٤.

وسميت بالمعصرات لأن السحاب ينعصر فينزل منه الماء، على تشبيهها بالفتاة المُعْصِر أى التى ناهزت سن البلوغ فيمكنها الحمل والولادة والثجاج: الشديد الانصباب أى ينزل ماؤها بغزارة.

الرعد والبرق:

وهما من الظواهر الطبيعية التى ورد ذكر أسمائها فى القرآن الكريم. وقد ذكرتُ فيما سبق آياتٍ تضمنتها وهناك آيات أخرى تتحدث عنها فقد شبه الله المنافقين فى سورة البقرة فى معرفتهم الحق وعدم اهتدائهم به بقوم نزل عليهم مطر من السماء فأظلم الجو بتكاثف السحب، وقد صحب هذا المطر رعد بصوت يصم الآذان فيضعون أصابعهم فى آذانهم خوفا من الصواعق التى تنذر بالموت، يظنون أن ذلك سينجيهم، وبرق يشتد وهجه ولمعانه حتى يكاد يخطف أبصارهم ويذهب بها، ومع ذلك يحاولون أن ينتفعوا به فى طريقهم فيسيرون إذا أضاء لهم. ويقفون عندما يختفى ضوؤه. وهذا تصوير لما فيه المنافقون من تحيز وجهل، ولو شاء الله إهلاكهم بالرعد والبرق لفعل فزاد من صوت الرعد حتى يصممهم، وزاد فى ضوء البرق حتى يعميهم

فهو قادر على كل شيء.

قال تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ البقرة: ١٧.

ثم عطف عليها صورة أخرى هي المرادة هنا فقال تعالى ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ[1] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ البقرة: ١٩ - ٢٠.

وقد ورد ذكر الصاعقة وحدها في عدة آيات منها آيتان تتحدثان عن الصاعقة التي أخذت قوم موسى حينما طلبوا من موسى أن يريهم الله عيانا. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ البقرة: ٥٥.

والآية أخرى قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ النساء: ١٥٣.

وثلاث آيات تتحدث عن الصاعقة التي أهلكت عادا وثمود عندما عصوا نبيهم هودا وصالحا وعقرت ثمود الناقة، قال تعالى مخاطبا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم وطالبا منه أن ينذر قريشا بصاعقة تهلكهم مثلما أهلكت عادا وثمود من قبل ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ فصلت: ١٣.

والمراد بالصاعقة هنا العذاب المهلك أيا كان نوعه، فعاد كما نعرف من القرآن الكريم أُهلكوا بالريح الصرصر، وثمود أهلكوا بالصيحة، وإن كان لا مانع أن يكون قد صحب هذا العذاب صاعقة أيضا. وكرر الله إهلاك ثمود بالصاعقة في نفس

---

(١) مطر.

السورة أيضا فقال تعالى﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ فصلت: ١٧.

وفى سورة الذاريات ﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ الذاريات: ٤٣ - ٤٤.

المطر:

لم يرد ذكر المطر فى القرآن الكريم إلا وهو يعنى العذاب. أما إذا كان الله يريد الخير الذى يحدثه المطر فى الأرض فإنه يذكر الماء الذى ينزل من السماء كما مر فى فصل «السماء مصدر الخير» أو يذكر «الغيث» كما قال فى سورة لقمان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ لقمان: ٣٤.

فليس فى قدرة أحد غير الله أن ينزل الغيث إذا أراد الله احتباسه. وما المحاولات التى يبذلها العلماء لإنزال مطر صناعى من السحب إلا محاولات قليل نفعها. باهظة التكاليف ثم إنها تعتمد على السحب التى ساقها الله. فهم فى هذه المحاولات يعتمدون على قدرة الله.

وقال تعالى - فى سورة الشورى﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ الشورى: ٢٨.

فالله هو الذى ينزل الغيث بعدما أجدبت الأرض، ويئس الناس من نزوله بعد انقطاعه فينشر الله المطر أى يبسطه ويفرقه على الأرض الجدبة، وقد سمى المطر الذى يحمل الخير غيثا لأنه يغيث الناس من الجدب الذى ينشر الجوع والفقر.

كما سماه الله رحمة كما فى هذه الآية، وفى الآيات التى سبق ذكرها فى فصل (الرياح)

مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ الأعراف: ٥٧.

أى مبشِّرة بقدوم المطر.

وأما الآيات التى ذكر فيها المطر، فجاء معظمها فى ذكر العذاب الذى حل بقوم لوط قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ الأعراف: ٨٤.

والمراد بالمطر هنا الحجارة التى نزلت عليهم وعلى مدينتهم فدمرتهم، وعبر بلفظ المطر ليدل على تتابع الحجارة فى نزولها عليهم وكثرتها بالمطر، كما صرح بذلك فى سورة هود ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ هود: ٨٢.

وفى سورة الحِجْر﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ الحجر: ٧٤.

وقد ذكر الله فى الآية الأولى أن الإمطار وقع على المدينة وفى سورة الحِجْر أن الإمطار وقع عليهم، ولا تعارض فالمراد أنهم دُمروا ومدينتهم بالحجارة.

كذلك قال تعالى فى سورة الفرقان موبخا مشركى مكة لعدم التفاتهم إلى تعذيب الله لقوم لوط وإهلاك مدينتهم بأن أمطرها مطرا سيء العاقبة، بينما هم مروا بها فى أسفارهم للتجارة، أفلم ترها أعينهم؟ بل رأتها وشاهدت ما حدث بها من دمار، ولكنهم كانوا لا يصدقون بإحيائهم بعد موتهم للحساب.

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ الفرقان: ٤٠.

وفى سورة الشعراء بشأن إهلاك قوم لوط أيضا﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ

ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾ الشعراء: ١٧٣.

وقد ذم الله هذا المطر لسوئه وشناعته وهو جدير بهؤلاء المنذَرين الذين لم ينتفعوا بالإنذار وقد تكررت هذه الآية بلفظها فى سورة النمل ﴿ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ النمل: ٥٨.

آية واحدة ذكر فيها المطر ولم يكن متصلا بقوم لوط وإن كان فيه معنى الشر أيضا، وردت هذه الآية عندما سمح الله للمحاربين أن يتخففوا من أسلحتهم أثناء الصلاة فقال تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ ﴾ النساء: ١٠٢.

الجبال

وقد ورد ذكر الجبال فى آيات كثيرة بلفظها كما وردت الرواسى فى آيات عدة أيضا. وقد بين الله أن الجبال للأرض بمثابة الأوتاد التى تمسك بها خشية أن تضطرب وتتحرك فقال تعالى ممتنا على عباده ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ النبأ: ٦ - ٧.

وقريب من هذا المعنى ما جاء فى سورة النازعات ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ النازعات: ٣٢ - ٣٣.

ولضخامة الجبال وثباتها سماها الله الرواسى التى ترسو وترسخ فى الأرض. وقد ذكر هذا اللفظ اسما للجبال فى آيات كثيرة. فقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ الرعد: ٣.

وكرر هذا المعنى تقريبا فى سورة الحجر فى فقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ الحجر: ١٩ وتكررت هذه العبارة فى سورة ق (٧).

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ ق: ٧.

وفى سورة النحل بين الحكمة من إلقاء هذه الرواسى وهى لضبط توازن الأرض ومنعها من أن تضطرب بالناس ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ النحل: ١٥.

وتكرر هذا المعنى فى سورتين أُخريين هما الأنبياء فى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى

ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ الأنبياء: ٣١.

وفى سورة لقمان تكررت عبارة سورة النحل بألفاظها (١٠) وإن اختلف ما ذكر بعد ذلك فى الآيتين.

وقد وصف الله هذه الرواسى بأنها شامخات أى شديدة الارتفاع فى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ ﴾ المرسلات: ٢٧.

وفى سورة فصلت ذكر الله تعالى أنه بعد أن خلق الأرض فى يومين جعل فوقها الجبال فقال ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا ﴾ فصلت: ٩ - ١٠.

فالوظيفة الأولى للجبال هى أن تحفظ الأرض من الاضطراب، وتضبط توازنها فهى كالأوتاد التى تمسك بها لئلا تميد، وقد اكتشف العلماء حديثا أن للجبال جذورا بعيدة العمق فى الأرض فما أشبهها حقيقة بالأوتاد.

وللجبال نفع مباشر للناس، وقد من الله عليهم بذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ النحل: ٨١ والأكنان جمع كِنٍّ وهو كل ما يحفظ ويقي من الريح والمطر. والمعنى أن الله جعل لكم فى الجبال مواضع تسكنون فيها كالكهوف والحصون. وقد كانت ثمود قوم صالح تتخذ فى الجبال بيوتا كما ذكر الله عنهم فى عدة مواضع من القرآن الكريم فقد ذكَّرهم نبيهم صالح بهذه النعمة التى أنعم الله عليهم بها وهى نحت البيوت فى الجبال ضمن نعم أخرى، فعليهم أن يذكروا نعم الله ولا يفسدوا فى الأرض. قال تعالى على لسان صالح ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ الأعراف: ٧٤.

وقد تكرر تذكيرهم بهذه النعمة فى سورة الحِجْر ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ الحجر: ٨٢.

وفى سورة الشعراء ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ الشعراء: ١٤٩.

ولم يقتصر اتخاذ البيوت فى الجبال على البشر، بل تعداه إلى النحل فالله يوحَى إليها أن تتخذ بيوتها فى الجبال، وفى الشجر، وفى النبات الذى لا سيقان له، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ النحل: ٦٨.

والمراد بالوحى هنا الإلهام والغريزة التى أودعها الله فيها.

تعدد ألوان الجبال:

فى القرآن الكريم آية تلفت النظر إلى بعض مظاهر قدرة الله فى مخلوقاته وقد خص الله بالذكر تعدد الألوان، واختلاف درجات كل لون فى الثمار والجبال والناس والدواب والأنعام. يعنينا هنا ما ذكر بشأن الجبال فقد قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ فاطر: ٢٧.

والجدد جمع جُدَّة وهى الطريقة والعلامة والمراد الطرائق والشعاب فى الجبل، وقد ذكر الله أن هناك فى الجبل صخورا بيضا، وأخرى حمرا، وثالثة حالكة السواد، وأن كلا من هذه الصخور تتعدد درجات كل لون فيها بين أبيض ناصع، وأبيض أقل نصاعة وكذلك الأحمر. فأما الأسود فقد ذكر له درجة واحدة هى السواد الحالك لأن غرابيب جمع غربيب وهو الشديد السواد. وهذه حقيقة يعرفها العلماء ولاسيما علماء الجيولوجيا فهم يشاهدون فى الجيل الواحد شعابا مختلفا ألوانها وكذلك علماء النبات يعرفون ذلك فى النبات، وعلماء الإنسان والحيوان.

ولذلك عقب الله على هذه الاختلافات فى مخلوقاته بأنها لا يدركها إلا العلماء ويستدلون بها على ربوبية الله وقدرته فيخشونه فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ فاطر: ٢٨.

وأذكر هنا قصة رواها العلامة وحيد الدين خان [١]حدثت للعالم الهندى الدكتور عناية الله المشرقى مع عالم الفلك الإنجليزى المشهور السير جيمس جينز الأستاذ بجامعة كمبردج، يقول الدكتور عناية الله المشرقى: «كان ذلك يوم أحد من أيام سنة ١٩٠٩ وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتى لقضاء حاجة ما، فإذا بى أرى الفلكى المشهور ذاهبا إلى الكنيسة والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوت منه وسلمت عليه فلم يرد عليَّ، فسلمت عليه مرة أخرى، فسألنى: «ماذا تريد منى؟» فقلت له «أمرين يا سيدى الأول هو أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر) فابتسم السير جيمس، وفتح شمسيته على الفور. فقلت له أما الآخر فهو ما الذى يدفع رجلا ذائع الصيت فى العالم مثلك أن يتوجه إلى الكنيسة؟) وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ثم قال: (عليك اليوم أن تأخذ شاى المساء عندى) وعندما وصلت إلى داره فى المساء، خرجت ليدى جيمس فى تمام الساعة الرابعة، وأخبرتنى أن السير جيمس ينتظرنى فى غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوع عليها أدوات الشاى، وكان البروفيسور منهمكا فى أفكاره. وعندما شعر بوجودى سألنى (ماذا كان سؤالك؟) ودون أن ينتظر ردى، بدأ يلقى محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها ومداراتها وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة). حتى إننى شعرت بقلبى يهتز بهيبة الله وجلاله، وأما

---

(١) الإسلام يتحدى صـ ١٣٢/ ١٣٣.

السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائما، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة وبدأ يقول (يا عناية الله عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودى يرتعش من الوجود الإلهى، وعندما أركع أمام الله وأقول له: (إنك عظيم) أجد أن كل جزء من كيانى يؤيدنى فى هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين. وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة، أفهمت يا عناية الله خان لماذا أذهب إلى الكنيسة؟»

ويضيف العلامة عناية الله قائلا: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانا فى عقلى. وقلت له: يا سيدى لقد تأثرت جدا بالتفاصيل العلمية التى رويتموها لى، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آيات كتابى المقدس. فلو سمحتم لى لقرأتها عليكم، فهز رأسه قائلا (بكل سرور) فقرأت عليه الآية التالية:

﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ فاطر: ٢٧ - ٢٨.

فصرخ السير جيمس قائلا: (ماذا قلت؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء؟ مدهش وغريب وعجيب جدا. إن الأمر الذى كشفتْ عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين عاما. من أنبأ محمدا بها؟ هل هذه الآية موجودة فى القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك فاكتب شهادة منى أن القرآن كتاب موحَى من عند الله.).

الجبال والأنبياء:

ورد ذكر الجبال فى قصص بعض الأنبياء لارتباطهم بهم بعض ارتباط ففى قصة نوح عليه السلام يشبه الله ضخامة الأمواج التى كانت تسير فيها سفينة نوح بالجبال:

﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ هود: ٤٢.

وعندما دعا نوح ابنه ليركب فى السفينة -بعد أن يعلن إيمانه- أبى وقال سألجأ إلى جبل يحمينى من الطوفان فقال أبوه: لن يحميَ أحدا فى هذا اليوم من الهلاك إلا رحمة الله فلم يلتفت الابن إلى ذلك فغرق مع الكافرين ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ هود: ٤٢ - ٤٣.

وأما سفينة نوح فقد استقرت على الجودي وهو اسم جبل بعد أن صور الأمر الإلهى بإنهاء الطوفان ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هود: ٤٤.

وفى قصة إبراهيم عليه السلام عندما طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى طلب منه أن يأخذ أربعة من الطير يذبحهن ويقطعهن أجزاءً ثم يضع على كل جبل منهن جزءا ثم يناديهن فيحييهن الله ويطرن إليه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٦٠﴾ البقرة: ٢٦٠.

ولموسى عليه السلام أحداث مرتبطة بالجبل -وينبغى أن تعرف أن من أسماء الجبل الطور، فالطور معناه الجبل- فقد تلقى موسى الوحى الإلهى من على الجبل المعروف بسيناء ويقال له أحيانا طور سيناء قال الله تعالى ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ مريم: ٥٢.

ويفصل الله هذا الأمر فى سورة القصص، فعند عودة موسى عليه السلام بأهله، بعد انتهاء خدمته لشيخ مدين أبصر نارا فى جانب جبل الطور -فطلب من أهله

البقاء حتى يعرف مصدر النار وخبرها أو يأتى لهم بشعلة من نار يستدفئون بها، فلما ذهب إلى النار أوحى الله إليه ما أراد ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ القصص: ٢٩ - ٣٠.

كما كان للجبل ارتباط بموسى عندما واعده الله أن يذهب إليه ليعطيَه التوراة وكان ذلك بجوار الجبل، فلما كلمه الله طمع موسى فى رؤيته، فطلب من الله أن يمكنه من النظر إليه، فقال الله له لا يمكن أن ترانى، وطلب منه أن ينظر إلى الجبل ليعلم ماذا سيحدث للجبل عندما يتجلى الله له، فإن ثبت الجبل مكانه بعد تجلى الله له فسوف يرى موسى الله. ففوجئ موسى بالجبل وهو يندك أما عينيه، ولم يطق المنظر فصعق وأغمى عليه، فلما أفاق من غشيته علم استحالة الرؤية واستغفر الله من هذا الطلب وتاب إليه.

قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف: ١٤٣.

كذلك كان لقوم موسى ارتباط بالجبل، فقد خوفهم الله بإسقاط الجبل فوقهم إن لم يعملوا بما فى التوراة، وقد تكررت رواية هذه الحادثة فى عدة مواضع من القرآن الكريم فقال تعالى -فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ البقرة: ٦٣.

وتكرر صدر الآية فى نفس السورة (٩٣) وذكرت سورة الأعراف هذه الحادثة بتفصيل أوفى، فقد بينت صورة الجبل وهو مرفوع فوقهم، فهو كالمظلة يظلهم من كل جانب، وظنوا أنه سيقع بهم، وجاءهم الأمر الإلهى أن يعملوا بها فيها بجد واجتهاد لتحصل لهم تقوى الله. قال تعالى ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الأعراف: ١٧١.

وكان لداود عليه السلام شأن مع الجبال. فقد سخرها الله لتعمل معه فى المساء والصباح فقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ ص: ١٨.

وقد بين الله فى سورة سبأ الأمر بتسخير الجبال لتسبح معه فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ سبأ: ١٠.

وقد ذكرت عند الحديث عن تسبيح الرعد أن الله أودع فى جميع مخلوقاته وسيلة تمكنهم من إدراك جلال الله، ومن الإقرار بهذا الجلال بالطريقة التى تناسب كلا منهم فإذا كان الله قد وهب الإنسان النطق، والتعبير باللفظ، فلا شك أنه وهب الكائنات الأخرى طريقة تمكنهم من تسبيحه، وإدراك ما يطلبه منهم، والإجابة عليه كحديث عرض الأمانة عليها، وقد قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ النور: ٤١.

فكل المخلوقات تصلى وتسبح لله بطريقة علمها إياها. ولذلك قال تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء: ٤٤.

وقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الحج: ١٨.

كما ذكر الله أن القرآن لو أنزله الله على جبل لناء بجلال الله وملأ الخشوع جوانبه

فتصدعت من كل جانب من خشية الله قال تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ الحشر: ٢١.

وكان للجبل نصيب -بأمر الله- فى إيواء رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم عندما آذاه قومه فاضطر إلى الهجرة فحاولوا منع الرسول ولكنه استطاع أن يخرج ليلا من مكة هو وصاحبه أبو بكر وعلما أن قريشا ستطاردهما لتعيدهما إلى مكة فلجآ إلى غار فى جبل ثور القريب من مكة ليختفيا فيه إلى أن يهدأ عنهما الطلب، فكان فى ذلك نجاتهما بإذن الله. وقد ذكر القرآن هذه القصة فى قوله تعالى﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة: ٤٠.

وقد هبط الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتعبد فى غار فى جبل حراء ولكن هذا خارج عن موضوعنا لأنه لم يرد فيه نص قرآنى.

وقد أقسم الله بالطور -وهو جبل بسيناء- فقال تعالى ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ الطور: ١ - ٢، فى سورة سماها باسمه «الطور» الآية (١) كما أقسم به بعد إضافته إلى سيناء التى حولها إلى سينين رعاية للفواصل كما حول «إلياس» النبى إلى «إلياسين» من أجل ذلك فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ (الصافات: ١٣٠). قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾ التين: ١ - ٢

على أن بعض المفسرين يقولون إن التين والزيتون جبلان بالشام. وبهذا يكون الله قد أقسم بالجبال الثلاثة.

الجبال يوم القيامة:

عندما يأذن الله بزوال الكون تندك هذه الجبال وتتفتت، وتتحول إلى ذرات كالغبار يتطاير فى كل مكان كما قال الله تعالى ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ الواقعة: ٥ – ٦.

وتصبح -كما صورها الله فى آية أخرى- كالصوف المندوف فى تفتتها وتطايرها ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ القارعة: ٥.

وقد كان كفار مكة -لإنكارهم البعث- يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم ساخرين أو منكرين: وماذا سيكون بشأن الجبال هذه الشامخة الضخمة الصلبة يوم القيامة؟ فيقول الله له قل لهم: سينسفها ربى نسفا فيتركها وقد سويت بالأرض فأصبحت مثلها منبسطة مستوية، لا ترى فيها انخفاضا أو ارتفاعا. قال تعالى﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ طه: ١٠٥ – ١٠٧.

وقد تكرر هذا المعنى فى عدة آيات منها قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ المزمل: ١٤.

وقوله تعالى ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ النبأ: ٢٠.

لقد دكت الأرض دكا، وزالت الأرض بمن فيها فما بقاء للأوتاد؟!

الإنسان

لن أتعرض لخلق الإنسان الأول، وهو آدم عليه السلام، فقد فصلت القول فى ذلك، وذكرت كل الآيات المتصلة به، فى الجزء الأول من هذه الموسوعة: «القصة فى القرآن الكريم» ولكنى سأتناول ما يتصل بالإنسان حيث هو جنس مستقل عن غيره من الكائنات.

لقد أخبرنا الله فى القرآن الكريم أن الإنسان مخلوق استحق تكريم الله سبحانه، فقال تعالى ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء: ٧٠.

وقد خلقه الله فى أحسن صورة، فهو المخلوق الوحيد الذى جعله الله مستقيم القامة يمشى على رجلين، وله يدان يستخدمهما فى كل ما يريده. وقد أقسم الله تعالى بالتين والزيتون وطور سنين وهى جبال بمكة البلد الأمين بأنه خلق الإنسان فى أحسن صورة فقال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين: ١ - ٤.

ويذكر فى آية أخرى أنه خلق الإنسان فسوى خلقه وعدله ثم ركبه فى الصورة التى أرادها الله له، والتى تختلف عن جميع صور المخلوقات الأخرى ليتميز كل فرد عن الآخر. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ الانفطار: ٦ - ٨.

وقد من الله على الإنسان بأعظم منة، منة العقل، والتفكير والتعبير. قال تعالى

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ الرحمن: ٣ – ٤.

ومن أجل هذا ترك له حرية الاختيار، وحرية الإرادة فى مجال قدرته فلم يفرض عليه موقفا تجاه العقيدة، وتجاه العمل للآخرة أو للحياة الدنيا كما فعل مع الكائنات الحية الأخرى التى تعيش بغريزتها لا تحيد عنها.

ولكن الله بصر الإنسان ليكون الأمر واضحا أمامه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنفال: ٤٢.

فقال تعالى﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ الإنسان: ٣.

وقال تعالى﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[1] البلد: ٨ – ١٠.

ومن أجل هذا أرسل إليه الرسل ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ النساء: ١٦٥.

وبعد ذلك ترك له حرية الاختيار ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ البقرة: ٢٥٦.

وقال تعالى ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ الكهف: ٢٩.

ومن أجل العقل الذى ركبه الله فيه، وما أوتيه من حرية الاختيار قبل حمل الأمانة التى أبت حملها السماوات والأرض والجبال لإحساسها بعدم القدرة على تحملها، وإن كان الإنسان قد قصر فى القيام بها كما يجب عليه لظلمه وجهله ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ الأحزاب: ٧٢.

---

(١) طريق الخير وطريق الشر.

خَلْقُ الإنسان:

أما الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام فقد خُلق من طين -كما سبق أن فصلت القول فيه- وأما أبناؤه المتسلسلون منه إلى يوم القيامة فقد ذكر الله فى آيات كثيرة كيفية خلقهم، ومراحل تكوين الجنين الإنسانى.

ومما يلفت النظر ويثير الفكر أن أول آيات نزلت من القرآن الكريم بينت منشأ تكون الجنين. قال تعالى﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴾ العلق: ١ - ٢

ومن الجدير بالذكر أن السورة سميت بالعلق ولم تسم بأى اسم آخر مما تحتويه السورة، وتسمية السور لها هدف هو لفت الانتباه إلى الاسم، والعلق جمع علقة وهى قطعة دم متجمدة. وهى ما تكونت عن المنى أو النطفة التى ذكرها الله فى آيات أخرى كقوله تعالى﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ النحل: ٤.

فهذا الإنسان من نقطة من المنى كبر ونضج عقله وأصبحت قدرته على الجدال بينة ظاهرة. ومثل هذه الآية قوله تعالى فى سورة يس﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ يس: ٧٧.

وقريب من هذا قوله تعالى﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ الكهف: ٣٧.

وقوله تعالى﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجًاۚ ﴾ فاطر: ١١.

وقوله تعالى﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۞ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴾ النجم: ٤٥ - ٤٦.

ومثل قوله تعالى ﴿ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ ﴾ القيامة: ٣٧.

وفى سورة الإنسان يقول تعالى عن الإنسان ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٍ نَّبۡتَلِيهِ

فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ الإنسان: ٢.

والأمشاج هى الأخلاط الناتجة عن التقاء الحيوان المنوى بالبويضة ويقول تعالى فى سورة «عبس» عن الإنسان أيضا﴿ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ عبس: ١٨ - ١٩

وقد عبر فى آية أخرى عن النطفة بالماء الدافق فقال تعالى﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ الطارق: ٥ - ٧. والصلب هو الظهر، والترائب جمع تريبة وهى عظام الصدر.

مراحل تكوين الجنين وعمر الإنسان:

وقد ذكر الله عدة آيات تتناول مراحل تكوين الجنين فقال تعالى فى سورة الحج ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ الحج: ٥.

وقال تعالى فى سورة (المؤمنون) ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ المؤمنون: ١٢ - ١٤

وقال تعالى فى سورة غافر﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ غافر: ٦٧.

فهذه الآيات تحدثت عن أطوار الجنين وأطوار العمر وسأتناول أولا مراحل

تكوين الجنين. فإذا تأملنا الآيات الثلاث كما ذكرت أنه خلق من تراب أو من طين. وما الطين إلا تراب ممزوج بالماء، وهى تشير بذلك إلى خلق آدم، ولكن لا شك أن ذريته فيهم عناصر التراب، وقد أثبتت الدراسات المعملية الحديثة أن التراب مكون من ثمانية عشر عنصرا كالحديد والمغنسيوم والبوتاسيوم وغيرها وقد وجدت هذه العناصر كلها فى الإنسان والإنسان حقيقته تراب، ثم تحدثت الآيات الثلاث عن النطفة التى يتكون منها الجنين وهى -المنى- وهذه النطفة تذكر الآية الثانية أنها استقرت فى قرار مكين، وهو رحم المرأة، هذه النطفة تتحول إلى علقة، وهى الدم الجامد -وهى أيضا الدودة- وقد قال الدكتور كينيث ل. مور[1]أشهر علماء الأجنة فى العالم -وهو كندى- إن الجنين عندما يبدأ فى النمو فى بطن أمه يكون شكله يشبه العلقة أو الدودة، وعرض صورا بالأشعة لبداية خلق الجنين، ومعها صورة للعلقة. فظهر التشابه واضحا بين الاثنين. ولما قيل له: إن العلقة عند العرب معناها الدم المتجمد، ذهل وقال: إن ما ذكر فى القرآن ليس وصفا دقيقا لشكل الجنين الخارجى ولكنه وصف دقيق لتكوينه، وذلك أنه فى مرحلة العلقة تكون الدماء محبوسة فى العروق الدقيقة فى شكل الدم المتجمد.

وتقرر آيتا سورة الحج (والمؤمنون) أن هذه العلقة تتحول بعد ذلك إلى مضغة، وتنفرد سورة الحج بأن هذه المضغة تكون مخلقة أو غير مخلقة، والظهور بالتخليق أن يكون ظهر فيها آثار الخلق.

وقد جاء القرآن الكريم بالوصف الدقيق، فعندما عرضت صورة الأشعة المأخوذة للجنين وهى فى مرحلة المضغة -والمضغة هى أى شيء يمضغ- وصورة قطعة من

---

(١)عن كتاب الأدلة المادية على وجود الله للشيخ الشعراوى نقلا عن مؤتمر الإعجاز العلمى للقرآن الكريم، ص ١١٨/ ١١٩/ ١٢٠

الصلصال أو اللبان الممضوغ وجد الشكل واحدا، ثم ظهرت صورة الأشعة التى التقطت للجنين أنها فى مرحلة المضغة وجدت فيها تجويفات تشبه علامات الأسنان، بل إن الله سبحانه وتعالى تجاوز مرحلة الشكل الخارجى إلى التكوين الداخلى فقال جل جلاله ﴿ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ الحج: ٥.

وعندما جىء بالمضغة الآدمية من بطن الأم وطولها سنتيمتر واحد، وتم تشريحها تحت الميكروسكوب الإلكترونى وجد أن بعض أجهزة الجنين بدأت تتخلق، وبعضها لم يتخلق.

ولقد عرض العالم الكندى كل أطوار الجنين فى بطن أمه التى التقطت بأحدث الأجهزة العلمية، فإذا هى تنطبق تماما على كل ما ذكر فى القرآن الكريم من مراحل تكوين العظام واللحم إلى غير ذلك.

ولما قيل للدكتور كينيث ل. مور هل كان من الممكن أن يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه التفصيلات عن أطوار الأجنة؟ قال: مستحيل، إن العالم كله فى ذلك الوقت لم يكن يعرف أن الجنين يخلق أطوارا. فما بالكم بتحديد مراحل هذه الأطوار التى لم يستطع العلم حتى الآن تسمية أطوار الجنين. بل أعطاها أرقاما بشكل معقد غير مفهوم، فى حين جاءت فى القرآن بأسماء محددة وبسيطة وغاية فى الدقة. ويتضح لى أن هذه الأدلة حتما جاءت لمحمد من عند الله، وهذا يثبت أن محمدًا رسول الله. فقيل له: بعد أن قلت ما قلت أفلا تسلم؟ فقال: إنه مستعد أن يضع فى الطبعات القادمة من كتبه إشارة إلى ما علم.

ولقد قرأ معنى الآيات التى جاءت فى القرآن الكريم على أكبر علماء الأجنة فى العالم، فلم يجرؤ أيٌّ منهم أن يدعى أن هناك تصادما بين ما جاء فى القرآن الكريم

وأحدث ما وصل إليه العلم، ولكن أحدهم أثار أن الوراثة أو البرنامج الوراثى للإنسان يوجد فى نطفة الرجل، ويتحدد فيها تفاصيل الإنسان الذى سيولد: أذكر أم أنثى ما هو لون العينين ولون الجلد ولون الشعر إلى آخره. أى أن الإنسان تكون صفات خلقه موجودة فى شفرة خاصة فى نطفة الرجل، فلما قرأت عليه الآية ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ عبس: ١٩.

قال: لا يمكن أن يكون هذا إلا من عند الله[1].

وقد وقفت آية سورة غافر عند مرحلة العلقة، وتجاوزتها سورة الحج إلى مرحلة المضغة، لكنها أضافت أمرا جديدا هو أن الحمل يستمر فى الرحم كما شاء الله الاستقرار فترة محددة وهى مدة الحمل التى وصفها الله لها بأنها أجل مسمى ويفهم من قوله تعالى «ما يشاء» إن بعض الحمل يستقر وهو أمر شاهد معروف.

ولكن سورة (المؤمنون) أتمت مرحلة نمو الجنين فى الرحم فقد ذكرت أن المضغة تتحول إلى عظام، ثم يكسو الله العظام لحما، وبعد ذلك ينزل الجنين وقد أنشأه الله خلقا آخر مختلفا عن أى مرحلة من المراحل السابقة هذا المخلوق ينزل بشرا سويا تام الخلقة، وهذا يستوجب الثناء على الله وتمجيده وأن نقول مع الله تعالى ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ المؤمنون: ١٤.

ويقول المفسرون: إن اسم التفضيل «أحسن» على غير بابه، لأنه ليس هناك خالق إلا الله، وإنما المراد أن الحسن وصل إلى درجة لا تعلوها درجة، وليس الحسن مقصورا على الإنسان بل يشمل كل ما خلقه الله مصداقا لقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ السجدة: ٧.

---

(١) المرجع نفسه ص ١٢١.

وأما مراحل عمر الإنسان التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم فقد جاءت فى سورتى الحج وغافر وأول هذه المراحل الطفولة ﴿ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ﴾ غافر: ٦٧.

تليها مرحلة بلوغ الأشد وهى الشباب والرجولة، ثم تأتى مرحلة الشيخوخة، وهى نوعان: الشيخوخة الطبيعية التى يكون الإنسان فيها على قدر من الصحة تمكنه من ممارسة حياة مناسبة لسنه كما ورد فى سورة غافر، والنوع الآخر أرذل العمر الذى ذكره الله فى سورة الحج وهو المرحلة التى وصفها الله بأن الإنسان لا يعلم فيها من بعد علم شيئا، فلا يدرك ما يدور حوله، ولا يعرف من يحيط به، ولا يذكر شيئا كما ورد فى سورة الحج. وذكره الله فى سورة أخرى هى النحل فقال تعالى﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾ النحل: ٧٠.

وقريب من هنا قوله تعالى ﴿ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ ﴾ يس (٦٨). أى أن من يصل إلى مرحلة عالية من العمر يرجع فى تفكيره وعقله كطفل لا يعقل شيئا.

ولكن ليس كل إنسان يبلغ هذه المراحل جميعا. بل منهم من يموت فى أية مرحلة منها كما ذكر الله ذلك فى سورة الحج ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ الحج: ٥.

وفى سورة غافر: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى ﴾ غافر: ٦٧.

أعضاء الإنسان:

ذكر الله بعض أعضاء الإنسان فى القرآن. فذكر الرأس والعين والأذن والشفة واللسان واليد والرجل والجلود والأصابع وجاء ذلك فى مناسبات مختلفة أذكر أمثلة منها. فقد قال تعالى –فى معرض الامتنان على الإنسان وتذكيره بواجبه حيال ربه ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴾ البلد: ٨ – ٩.

وقال تعالى - فى معرض توبيخ المشركين لعبادتهم أصناما حُرمت حتى من الحواس التى يتمتعون هم بها ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الأعراف: ١٩٥.

وقد بينت هذه الآية وظائف هذه الأعضاء.

وقد كرر الله الامتنان على عباده بثلاثة أعضاء مهمة هى وسيلة الإدراك فى الحياة، وبدونها يكون الإنسان أقل من الحيوان درجة، بل درجات وهى، الأذن والعين والقلب والمراد به العقل، ويذكره الله كثيرا بلفظ الفؤاد أما الأذن والعين فيستغنى بذكر وظائفهما عن ذكرهما، ولكن يذكر الأفئدة والفؤاد يقول تعالى﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل: ٧٨.

وفى آية أخرى يقول تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ المؤمنون: ٧٨.

وفى آية ثالثة يقول تعالى﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ السجدة: ٩.

وفى آية رابعة يقول تعالى﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ الملك: ٢٣.

ونلاحظ أن الآيات الأربع ثلاثا منها تختم بأن هذه النعم تقابَل بشكر قليل لا يقارَن عظمة النعمة بها، وواحدة تختم بأن الله فعل ذلك ليشكره عباده على ما منحهم من نعم. وهذا يدل على أن الإنسان لا يقدِّر ما أنعم الله به عليه، بل يكفر نعمه ويجحد فضله لظلمه وكفرانه كما عبر الله عن ذلك فى قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا

تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ إبراهيم: ٣٤.

وقد حمل الله هذه الأعضاء مسئولية أخطاء الإنسان، وتحمله الذنوب، لأنها وسائل الإدراك فيه، فالأذن تسمع قول السوء، والعين ترى فعل السوء، والفؤاد يستنبط من ذلك ما قد يسيء إلى نفسه وإلى الآخرين. قال تعالى﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ الإسراء: ٣٦.

والفؤاد يُذكر فى القرآن مرادفا للعقل. وكذلك جمعه الأفئدة، ولذلك استغنى الله عن ذكر العقل، فلم يرد فى القرآن، وإن كان ورد الفعل منه كثيرا، «يعقلون، تعقلون، يعقل» ومثل الفؤاد المراد به هنا مرادفُه «القلب» فمعناه أيضا العقل، وجمعه قلوب، ولذلك يتبع أحيانا بما يؤكد هذا المعنى كقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الأعراف: ١٧٩.

والفقه من خصائص العقل، وكما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ محمد: ٢٤.

فالله يبين أن وسيلة التدبر والفهم هى القلوب، فإذا لم تتدبر هذه القلوب ولم تفهمه، فقد فقدت الانتفاع بوظيفتها، فصارت كأنها صناديق مغلقة أقفلت بأقفال، فلا يمكن الانتفاع بما فيها.

وقريب من هذا المعنى ما صور الله به قلوب المعرضين عن الدعوة إلى عبادة الله، بأنها محاطة بأغطية تمنع وصول الفهم والتدبر إليها فقال تعالى﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ الأنعام: ٢٥.

والأكنة جمع كنان وهو الغطاء، والوقر: الثقل، وقد تكررت هذه العبارة بألفاظها فى سورة الإسراء فى قوله تعالى﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ

حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ الإسراء: ٤٥ - ٤٦.

وكذلك فى سورة الكهف مع اختلاف يسير فقد وضعت «إنا» بدل الواو الأولى فقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ الكهف: ٥٧

ووردت فى سورة فصلت باختلاف أكبر، حيث اعترف الكفار أنفسهم بذلك قال تعالى ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ فصلت: ٥.

وقد ذكر الله صراحة أن القلوب تعقل، فهى مرادفة للعقول، وأن عدم إدراكها للحقائق يخفى عنه الأمور وكأنها عمياء، وعمى القلب، أسوأ من عمى الأبصار، لأن الأبصار ترى المحسوسات فقط، أما القلوب فإنها تدرك ما تدل عليه هذه المحسوسات قال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ الحج: ٤٦.

كما بين الله أن القلوب موطن المشاعر والإحساسات فيذكر أن القلب يخشع وتصيبه رعدة لذكر الله، أو ينقبض ويشمئز من كراهية ذلك فذكر الله صفات المؤمنين الجديرين باسمهم بصفات منها أنهم إذا ذكر الله أحست قلوبهم بالخوف والخشية من جلاله فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الأنفال: ٢.

وذكر تعالى فى سورة الزمر -أنه أنزل القرآن الذى هو أحسن الحديث وأن المؤمنين عند سماعه تقشعر جلودهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم رقة لذكر الله فقال تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ

تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ الزمر: ٢٣.

ولكن الكفار إذا ذكر الله وحده تقبضت قلوبهم، وأعرضت عن ذكره، ولكن عند ذكر آلهتهم يصيبهم الفرح والسرور.

قال تعالى ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ الزمر: ٤٥.

وقد يتوسع الله فى مدلول القلوب فيذكر الصدور، يريد بها القلوب، وكثيرا ما يكون المراد عند ذكرها النوايا والمشاعر. فقد وردت آيات تتحدث عن الصدور بهذا المعنى منها قوله تعالى ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ ﴾ آل عمران: ١١٨.

والحديث فى الآية عن اليهود، ومدى ما يكنونه من بغض للمسلمين، وجاء التعبير بشرح الصدور كثيرا فى آيات القرآن دليلا على الراحة النفسية للاهتداء إلى الحق وعكسه ضيق الصدور، للدلالة على الحيرة والضلال، قال تعالى﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ الأنعام: ١٢٥.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يضيق صدره لعدم إيمان قومه فنهاه الله عن ذلك، قال تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ الأعراف: ٢.

وقال تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ هود: ١٢.

وقد بين الله فى هذه الآية سر الضيق الذى يشعر به وهو أن قومه لا يعتبرونه نبيا لأنه

لم ينزل عليه كنز يكون دليلا على اصطفاء الله له أو يأتى معه ملك يؤيده فى قوله. ثم يبين له أن مهمته الإنذار فالله يتولى الأمر كله فهو وكيل على كل شىء، وفى آية أخرى يذكر الله علمه بضيق رسوله ويرشده إلى أن يسبح الله حامدا إياه، ويسجد له ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ الحجر: ٩٧ – ٩٨.

أما ذات الصدور، أى خفاياها وأسرارها، فإن الله يعلمها، ولا يخفى عليه شىء منها فقد ورد هذا المعنى مرات عديدة فى القرآن الكريم. فكثير من الآيات التى تعبر عن أفعال العباد وعلم الله بها تختم بقوله تعالى ﴿ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ آل عمران: ١١٩

أو ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أو ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الأنفال: ٤٣

كقوله تعالى﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ آل عمران: ١٥٤.

وقوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ المائدة: ٧.

وقوله تعالى﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ هود: ٥.

والرأس ذكر عدة مرات، فقد ذكره الله حكاية عن زكريا وهو يدعو ربه مظهرا كبر سنه وما أحدثه به﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ مريم: ٤.

وجاء الرأس مع اللحية فى استغاثة هارون بأخيه موسى ألا يعنفه لعبادة بنى إسرائيل العجل﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾ طه: ٩٤.

كما ذكر الرأس فى العبادات كالحج قال تعالى ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ

فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ البقرة: ١٩٦.

وذكر الله أن حلق شعر الرأس أو تقصيره من شعائر الحج مصدقا للرؤية التى رآها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ ﴾ الفتح: ٢٧ .

كما ذكر الله الرءوس مع الوجوه، والأيدى بمرافقها، والأرجل والكعبين، على أنها فرائض الوضوء فقال تعالى ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ ﴾ المائدة: ٦.

وقد ورد ذكر الرءوس على سبيل الكناية فقد ذكر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن الكفار سيحركون رءوسهم كناية عن التعجب عندما يذكر لهم أنهم لو كانوا من حجارة أو حديد أو كانوا أعظم المخلوقات التى تملأ صدورهم إكبارا ثم ماتوا فالله قادر على بعثهم ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ ﴾ الإسراء: ٥٠ - ٥١.

كما يخبرنا الله عن قوم إبراهيم لما كسر إبراهيم أصنامهم، ثم أخبرهم أن كبيرهم هو الذى كسرهم، فرجعوا إلى أنفسهم لحظات شعروا فيها أنهم ظالمون بعبادتهم هذه الأصنام، ولكنهم نكسوا على رءوسهم أى أنهم ارتدوا إلى كفرهم وعنادهم ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ الأنبياء: ٦٣ - ٦٥

وعبدة الأصنام هؤلاء وغيرهم من المجرمين المشركين بالله سينكسون رؤوسهم أمام الله ذلا وخضوعا يوم القيامة ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ

رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ السجدة: ١٢.

والمنافقون فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يخطئون فى حق الرسول ويُطلب منهم أن يذهبوا إليه ليستغفروه لووا رؤوسهم كبرا وإعراضا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ المنافقون: ٥.

هذه الرؤوس المستكبرة التى يتعالى أصحابها عن طاعة الله والإيمان به سيصب الله عليها الماء المتناهى الحرارة عذابا لهم فى الآخرة. يقول تعالى﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴾ الحج: ١٩

ويقول أيضا ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴾ الدخان: ٤٧ - ٤٨.

وقد مر ذكر الأذن فيما سبق، وذكر بعض الآيات التى تتحدث عنها وكانت مقترنة بالأعين والأيدى والأرجل والقلوب، ولكنها وردت منفردة فى بعض الآيات. وهى فى معظمها على سبيل الكناية كقول المنافقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أذن، أى يستمع إلى كل واش ويتأثر به، ويرد الله عليهم أنه أذن خير لكم أى لا يسمع إلا الخير الذى ينفعكم ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ ﴾ التوبة: ٦١.

وعبر عن الطاعة، وعدم العناد بالأذن الواعية، فقال تعالى ﴿ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴾ الحاقة: ١٢.

وأما الأذن المعاندة فقد صورها الله بأن فيها ثقلا كالآيات التى مر ذكرها مع القلوب. وكقوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ ﴾ لقمان: ٧.

وكقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ فصلت: ٤٤.

وهناك تعبير آخر يأتى فى القرآن ليدل على الإعراض والاستكبار، ويتصل بالأذن كما يتصل بأعضاء أخرى للإنسان، وهو جعل الأصابع فى الأذن وقد ورد ذلك فى شكوى نوح إلى ربه من إعراض قومه عنه وأنه كلما دعا قومه إلى عبادة الله ليغفر لهم ذنوبهم أعرضوا عن الدعوة واستكبروا عنها.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ نوح: ٧.

كما جاء هذا التعبير فى سورة البقرة، ولكن ليدل على الخوف من الموت، عند سماع صوت الصواعق المرعب ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ البقرة: ١٩.

ويتصل بالأصابع البنان، وهو طرف الإصبع، وقد ورد ذكره فى آية تلفت انتباه أبناء عصورنا الحديثة ولاسيما العلماء منهم. وذلك فى قوله تعالى -ردا على من ينكر البعث، ويتعجب أن يجمع الله عظام الإنسان البالية، ويعيدها إلى الحياة، فيذكر له الله أن ذلك لن يحدث فحسب، بل سيحدث أصعب منه وهو تسوية البنان﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ القيامة: ٣ - ٤.

فنحن نعرف الآن بعدما قرره العلم الحديث، أن الخطوط التى فى البنان والتى تسمى البصمة، لا يمكن أن يتشابه بها فرد وآخر منذ أن خلق الله الدنيا وحتى الآن، ولذلك يتخذونها وسيلة لتحقيق شخصية الإنسان، فإذا ما تحدث الله عن تسوية البنان، فهو يلفت الانتباه إلى تلك الحقيقة التى لم تكتشف إلا فى العصر الحديث.

وقد ذكر الله البطون فى القرآن كالآية التى مر ذكرها: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ وقريب منه قوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ (الزمر: ٦).

والمراد بقوله تعالى: خلقا من بعد خلق مراحل تطور الجنين التى سبق ذكرها، وأما الظلمات الثلاث، فهى ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة.

كما ذكر البطون فى مجا ل وعيد الخارجين عن أمر الله والكافرين بأن النار ستملأ بطونهم، فكأن النار هى طعامهم الذى يأكلونه، كقوله تعالى فى سورة البقرة – وهو يتوعد الذين يكتمون ما عرفوه من كتاب الله ليكسبوا من وراء ذلك عرضا من أعراض الدنيا﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ البقرة: ١٧٤ – ١٧٥.

ومثله قوله تعالى –وهو يتوعد الذين يستولون على أموال اليتامى، ويأخذونها لأنفسهم دون وجه حق، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ النساء: ١٠.

ومن ألوان العذاب الذى سيعذب به الكافرون فى الآخرة المهل –وهو الزيت الذى اشتد غليانه فهو يغلى فى بطونهم كما يغلى الماء المتناهى الحرارة: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴾ الدخان: ٤٥.

وفى آية أخرى أن الماء المتناهى الحرارة يُصب من فوق رؤوسهم فينصهر به ما فى بطونهم من شحم ولحم كما تذوب جلودهم: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الحج: ١٩ – ٢٠). والجلود التى ذكرت فى الآية السابقة، ذكرت مرة أخرى فى عذاب الكافرين فى قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ

جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ النساء: ٥٦.

وقال الله تعالى دفعا لوهم الكافر، وهو أن عذابه سينقضي باحتراق جلده، فيبين الله أن الجلد كلما احترق بُدل به جلدا آخر كي يستمر العذاب ولا ينتهي.

وفى هذه الآية دليل على إعجاز القرآن العلمى، فقد اكتشف العلم حديثا أن الأعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة بحيث إذا احترق الجلد انتهى الإحساس بالألم تماما.

ويروى الشيخ الشعراوى[1] أن البروفيسور التايلندى تاجاتات تاجاش وهو من أكبر علماء العالم فى علم التشريح وكان يتحدث عن الأعصاب فى أحد مؤتمرات الإعجاز العلمى للقرآن الكريم- وعندما عرض عليه معنى هذه الآية: قال أهذا كلام قيل منذ أربعة عشر قرنا؟ قالوا: نعم، قال: إن هذه الحقيقة لم يعرفها العلم إلا حديثا، ولا يمكن أن يكون قائلها بشرا. بل هى من الله سبحانه وتعالى. حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

وبعض أعضاء الإنسان التى لها أثر فى ارتكاب المعاصى والخطايا وهى الأيدى والأرجل والألسنة والجلود والسمع والبصر، ذكر الله أنها ستشهد على الإنسان يوم القيامة بما ارتكب من خطايا بواسطته، قال تعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ النور: ٢٤

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ يس: ٦٥

وقال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟

---

(١) الأدلة المادية على وجود الله ص ١٢٣.

يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فصلت: ٢٠ – ٢٢.

صفات الإنسان:

وصف الله الإنسان في القرآن الكريم بعدة صفات، كلها صفات ذم ولذلك قال المفسرون إن الإنسان في القرآن، يراد به في معظم الآيات الكافر. ومن أكثر الصفات ورودا في القرآن وصف الإنسان بكفران نعم الله عليه ويأتي الوصف بإحدى صيغتي المبالغة: كَفور، كَفَّار، كقوله تعالى﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ هود: ٩.

ومثله قوله تعالى﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ الإسراء: ٦٧.

وقوله تعالى ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ الشورى: ٤٨

ويشترك الإنسان مع الشيطان في هذه الصفة، فقد وصف الله الشيطان أيضا بأنه كفور، قال تعالى ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ الإسراء: ٢٧.

وقال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ الزخرف: ١٥

وأما كَفَّار فقد أتت في بعض الآيات كقوله تعالى﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ إبراهيم: ٣٤.

وإنما استحق الإنسان صفة الكفران، لأنه يجحد نعم الله عليه بمجرد إحساسه بالأمان كما قال الله تعالى﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا

كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ يونس: ١٢.

وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الزمر: ٨.

ولذلك ذمه الله، وتعجب من كفران نعمه عليه قال تعالى ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ عبس: ١٧.

ومعنى قُتِلَ الإنسان: لُعِنَ.

ومن صفات الإنسان أيضا الظلم والجهل، قال تعالى﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ الأحزاب: ٧٢

وقد جاءت الصفتان على صيغة المبالغة. وكالآية التى سبق ذكرها ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إبراهيم: ٣٤.

ومن صفاته اليأس كالآية السابقة ﴿لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ هود: ٩.

وقوله تعالى ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ الإسراء: ٨٣.

وقوله تعالى ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ فصلت: ٤٩

وذكر الله أن من صفاته الضعف فقال تعالى ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ النساء: ٢٨.

والمراد بالضعف هنا عدم قدرة الإنسان على مغالبة شهواته ونزواته لأن الآية السابقة تحدثت عن محاولات المضلين إغواء الناس ليتبعوا الشهوات. قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ النساء: ٢٧.

كما ذكر الله تعالى أن الإنسان شديد الخصومة، كثير الجدال كالآيتين اللتين ذكرهما في مراحل نمو الجنين ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ النحل: ٤.

وفى سورة يس مثلها. وذكر فى سورة الكهف أنه أكثر الأشياء التى خلقها الله جدالا فقال تعالى﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ الكهف: ٥٤.

ومن صفات الإنسان فى القرآن العجلة فقد وصفه الله بأنه عجول قال تعالى ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ الإسراء: ١١.

والمراد هنا بدعاء الإنسان بالشر بيان خصلة من خصاله وهى الضجر بالحياة إذا لم تحقق له ما يريد، فيتعجل بالدعاء على نفسه أو على أهله، وكأنه يدعو بالخير.

ويؤكد القرآن صفة العجلة فى الإنسان فيصوره وكأنه خلق من مادة العجلة ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ الأنبياء: ٣٧ واستعجالهم غالبا ما يكون بالشر جهلا وعنادا كما قال تعالى عنهم ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ الرعد: ٦.

فهم لعدم إيمانهم بالرسول صلى الله عليه وسلم يطلبون منه أن يعجل لهم العذاب الذى يهددهم به. كما قالوا ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ الأنفال: ٣٢.

كما اقترحوا عليه أشياء ليصدقوه ويؤمنوا به منها أن يجعل السماء تتساقط عليهم قطعا﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ الإسراء: ٩٢.

ويقول تعالى﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ الحج: ٤٧.

أى أن العذاب سيحل بهم فى موعده الذى حدده الله، لأن الله قد وعد به، ووعد

الله لا يتخلف، وكانوا لا يستعجلون يوم القيامة، لأنهم لا يؤمنون بمجيئه، يقول تعالى ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الشورى: ١٧ - ١٨.

وذكر الله أيضا استعجال الكافرين بالعذاب فى قوله تعالى﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ العنكبوت: ٥٣ - ٥٤.

ومن صفاته التى وصفه بها القرآن أيضا شدة تقتيره وبخله، حتى لو أنه ملك خزائن الله التى لا تنفد أبدا لكان بخيلا ممسكا كارها للإنفاق﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ الإسراء: ١٠٠.

ولذلك وصف الله بالفلاح والفوز بالجنة من يستطيع أن يقاوم هذا الشح، فقال تعالى ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾التغابن: ١٦.

والإنسان فرح فخور، أى شديد البطر والتكبر على غيره، إذا زال عنه ضر أصابه، وأصابه من بعده خير، يقول تعالى عن الإنسان ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ هود: ١٠.

ولقد دعا الله الإنسان أن يطامن من كبريائه، ويخفف من زهوه فليس هو أكبر المخلوقات ولا أشدها. قال تعالى ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ الإسراء: ٣٧.

وأعلن الله أنه لا يحب هؤلاء المعجبين بأنفسهم المتعاظمين على الناس ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ النساء: ٣٦.

كما وصفه الله بشدة الهلع فقال تعالى ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ ﴾ المعارج: ١٩.

وقد فسر الله معنى «هلوعا» بأنه عندما يصيبه شر يكون شديد الجزع، وعندما يصيبه خير يمنع خيره عن الناس، ولا يعطى حق الله، وأصل الهلع شدة الجزع، قال تعالى﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ المعارج: ١٩ - ٢١ كذلك هو يطغى ويجاوز الحد فى استعلائه وتجبره عندما يحس بأنه أصبح واسع الثراء قال تعالى﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ العلق: ٦ - ٧.

وآخر هذه الصفات أنه كنود أى شديد الجحود لربه ولنعمه عليه، وهى قريبة من معنى «كفور» قال تعالى﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ العاديات: ٦.

وقد أتبع الله هذين بصفتين: الأولى: أنه لا ينكر جحوده لربه لشدة استعلائه واغتراره بماله، والأخرى أنه شديد الحب للمال الذى عبر الله عنه بالخير فقال تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ العاديات: ٧ - ٨.

هذه صفات الإنسان فى القرآن وكلها صفات ذميمة، لذلك فُهِمَ أن الإنسان هو الكافر ولذلك استثنى الله من قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ المعارج: ١٩ الآيات المصلين﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ المعارج: ٢٢.

كما وصف المؤمنين المتقين بصفات مدح كثيرة سبق ذكرها فى مواضع أخرى.

الحيوان

لم يرد لفظ الحيوان فى القرآن الكريم إلا فى آية واحدة فى قوله تعالى ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٤.

ومع ذلك لا يراد به جنس الحيوان المعروف، ولكن يراد به مصدر بمعنى الحياة. فالله يريد أن يقول إن الدار الآخرة هى الحياة -أى الحياة الحقيقية- وليست الدنيا.

ولكن ذكر الله أفرادا من الحيوان فى القرآن الكريم وهى الأنعام والخيل والحمير وغيرها وبعض الحشرات كالنمل والنحل. كما سأفصل القول.

الأنعام:

وهى أهم أفراد هذا الجنس من حيث اهتمام القرآن بذكرها، والأنعام هى الإبل والبقر والغنم والماعز، ولأهميتها ذكر الله أنه أنزلها من عنده لخير الناس فقال تعالى ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ الزمر (٦).

كما سمى سورة من طوال السور بالأنعام، فند فيها مزاعم المشركين حول الأنعام وتخصيصهم بعضها لسدنة الأصنام، وتحريم بعضها على النساء -وقد أوردت ذلك مفصلا فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة عند الحديث عن المحرَّم من الأطعمة- وقد بينت سورة الأنعام الثمانية أزواج المذكورة فى الآية السابقة وهى الذكر والأنثى من كل من الضأن والماعز، والإبل والبقر، قال تعالى: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ

صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الأنعام: ١٤٣ - ١٤٤.

وقد بين الله بادئ ذي بدء أن جميع أنواع الأنعام حلال للناس يأكلونها. فقال تعالى فى مفتتح سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ المائدة: ١.

وكرر الجزء الأخير من الآية فى سورة الحج ﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ الحج: ٣٠، والاستثناء فى الآيتين منصب على بعض الظروف التى تحرم الأكل منها كأن تكون ميتة أو يذكر عليها اسم غير الله كما سبق تفصيله فى موضع آخر.

وقد امتن الله فى آيات كثيرة على عباده بأن رزقهم بهذه الأنعام ليأكلوا منها، وينتفعوا بأصوافها وأوبارها وغير ذلك من المنافع التى فصلتها الآيات التى ستُذكر. وواجبهم إزاء ذلك الإكثار من ذكر الله، وشكره على هذه النعم، فقد ذكر الله فى سورة الأنعام أن من الأنعام ما يستطيع الحمل لكبر حجمه كالإبل والبقر، ومنها ما لا يستطيع الحمل لصغر حجمه كالغنم والماعز وصغار الإبل والبقر، وقد سماها الله فرشا لقربها من الأرض، فكأنها فى صغر حجمها كالفراش، ثم طلب الله من الناس أن يأكلوا من هذا الرزق وألا يطيعوا الشيطان فيما يزينه لهم من تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل من هذه الأنعام قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾﴾ الأنعام: ١٤٢.

وبين الله فى سورة النحل منافع عديدة للأنعام، فالناس يستدفئون بلبس المنسوج

من صوفها، وغير المنسوج أيضا، ويأكلون لحمها، ويستمتعون بجمال منظرها وهى تسير بعضها مع بعض عائدة من المرعى أو ذاهبة إليه، ويحمل من الأمتعة ما ثقل حمله عندما يسافرون إلى بلاد بعيدة، لا يوصل إليها إلا بصعوبة شديدة. وكل هذه المنافع أتاحها الله لهم لما يتصف به من الرأفة والرحمة قال تعالى ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ النحل: ٥ - ٧.

وقد ذكر الله فى نفس السورة ألوانا من المنافع الأخرى التى جاءت مجملة فى الآية السابقة فى قوله تعالى ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ وذكر اللبن وبين ما فى استخراجه من الأنعام من عبرة تدل على قدرة الله وعظمته فهو يخرج من ضرع البهيمة من مكان محاط بالكرش وما فيه من فضلات، ومحاط بالدم من كل ناحية ولكنه يخرج مبرأً من كل شائبة من لون أو طعم أو رائحة بل يخرج أبيض ناصع البياض يشربه الشارب فيسهل بلعه ومروره بالحلق قال تعالى ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ النحل: ٦٦.

وقد أشاد علماء الأغذية باللبن وقيمته الغذائية[1] . فهو غذاء يقارب الكمال لأنه يحتوى على أهم العناصر التى يحتاجها الجسم وهى الدهن والسكر والبروتينات وبعض الأملاح والفيتامينات، أى أنه يحوى العناصر الواقية، والعناصر الوقودية، أى عناصر الغذاء التى قلما تتوافر فى طعام واحد. وهو سهل الهضم والامتصاص، ويستطيع الشخص العادى هضمه، وهو عامل مساعد للنمو لوفرة المواد البروتينية

---

(١) انظر كتاب الغذاء والدواء فى القرآن الكريم.

به التى تدخل فى تركيب الأنسجة، وهو مصدر طبيعى لعناصر الكالسيوم والفسفور، ويمد الجسم بالكثير من الأحماض الأمينية والدهنية الضرورية فضلا عن بعض الأملاح اللازمة لبناء العظام، فاللبن فى حالته متوافق متناسب مع كل من يتناوله، فهو الغذاء الذى يتناوله الإنسان من اليوم الأول لولادته، ويستسيغه ويناسبه حتى اليوم الأخير من حياته. وقد قال صلى الله عليه وسلم عن اللبن: « من سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك فيه وزدنا منه، فإنه ليس شيء يجزئ من الطعام والشراب غير اللبن» وقال أيضا: « عليكم بألبان البقر فإنها بركة» أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

كما بين الله تعالى أيضا فى سورة النحل منافع تحصل من جلود الأنعام فتتخذ منها البيوت الخفيفة كالخيام التى تغطى من جوانبها بجلود الأنعام، وهى بيوت تصلح فى أثناء السفر وتصلح أيضا فى أثناء الإقامة، ومنافع أخرى تحصل من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها -فالصوف من الغنم والوبر من الإبل والشعر من الماعز- فتستخدم كل هذه الأنواع فى صنع الأثاث كالبسط والحشايا والأكسية، ويستمتع بها الناس إلى أن تبلى.

قال تعالى﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ النحل: ٨٠

وقد أكد الله فى سورة (المؤمنون) العبرة الموجودة فى الأنعام والتى ينبغى للإنسان أن يعتبر بها ويتعظ، ويعترف بقدرة الله وفضله فهذه الأنعام يسقينا الله مما فى بطونها -ولم يصرح بذكر اللبن- ولنا فيها منافع كثيرة، لم تفصلها الآية وتركتها لاستنباطنا كما أننا نأكل من لحوم هذه الأنعام، ونتخذها -مع السفن- وسيلة انتقال.

قال تعالى ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ المؤمنون: ٢١ - ٢٢.

وكرر الله هذا المعنى أيضا فى سورة غافر. فذكر أن الله جعل الأنعام للناس ليركبوا بعضها، ويأكلوا من لحومها، وبين أن لها منافع، وأنها تحقق لهم ما يرغبون فيه من ألوان الانتفاع بها، والانتقال بها، وحمل أثقالهم عليها، فهى تشارك السفن فى هذا. قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ غافر: ٧٩ - ٨٠.

وخص الذكر فى سورة الزخرف -الانتفاع بركوب الأنعام، واتخاذها وسيلة انتقال هى والسفن، فقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ الزخرف: ١٢.

ثم بين للناس ما ينبغى لهم أن يفعلوه حين يركبون هذه الأنعام أو تلك السفن، وهو أن يذكروا نعمة ربهم عليهم بتسخير هذه الوسائل لانتقالهم، والتى لم يكن من المستطاع تسخيرها لولا فضل الله وقدرته، وكلنا نعرف أن الجمل أو الثور إذا تمرد على راكبه استطاع سحقه، فعلى الناس أن يعوا هذه الحقيقة ويسبحوا الذى مكنهم من استخدامها، وما كانوا وحدهم قادرين على ذلك، قال تعالى بعد الآية السابقة ﴿ لِتَسْتَوُوا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ[1] ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ الزخرف: ١٣ - ١٤

وقريب من معنى الآية الأولى قوله تعالى فى سورة يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ

---

(١) مطيقين قادرين.

فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ يس: ٧١ – ٧٣.

فقد بين الله فى هذه الآيات بعض منافع الأنعام فهى تُركب وتؤكل بعد أن ذللها الله للإنسان ويسرها لخدمته فأصبحت مملوكة للناس منقادة لأمرهم ليست كالحيوانات الأخرى الوحشية التى لا يمكن للإنسان أن يركبها، أو يأكلها دون صيد، ولهم فيها منافع أخرى -لم تفصلها الآية- وهم يشربون ألبانها.

ومن نعم الله على الإنسان أن جعل منه الذكر والأنثى ليبقى النسل ويتكاثر وكذلك جعل الله من الأنعام كذلك أزواجا ذكرا وأنثى لكى لا تفنى فلا يجد ما يأكله أو يركبه قال تعالى ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ [١] ﴾ الشورى: ١١.

وقد ذكر الله الأنعام أيضا فى مجالات أخرى، فقد شبه الله تعالى الكفار من الجن والإنس بعدم تفكيرهم فى قدرة الخالق وربوبيته، مع أن الله خلق لهم آلات الإدراك من عقول وأعين وآذان ولكنهم لم ينتفعوا بها فأصبحت مرتبتهم فى مرتبة الأنعام بل أقل درجة، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ الأعراف: ١٧٩.

وقريب من هذا المعنى ما جاء فى سورة الفرقان حيث بين الله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن أكثر هؤلاء الكفار لا يفكرون فيما يسمعونه منك ولا يهتدون به، فكأنهم حُرموا نعمة السمع والعقل، وصاروا كالأنعام بل هم أكثر ضلالا منها،

---

(١) يكثركم.

قال تعالى ﴿ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان: ٤٤.

وشبَّههم بها أيضا فى سورة محمد ذلك أنهم لا يفكرون فى عاقبة أمرهم، بل يتمتعون بمتع الحياة الدنيا ويأكلون كما الأنعام غافلين لاهين والنار مصيرهم ومأواهم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴾ محمد: ١٢.

كما ذكر الله الأنعام من بين الأمور التى يشتهيها الناس من نساء وبنين والأموال الكثيرة من الذهب والفضة والخيل الحسان والزروع. وبين أن كل ذلك متاع فانٍ فى الحياة الدنيا، وعند الله فى الآخرة خير منه ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ آل عمران: ١٤.

وذكَّر نبى الله هود قومه بما أنعم عليهم بما يعرفون قيمته من أنعام وبنين وغيرها فجعل الأنعام فى مرتبة البنين ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴾ الشعراء: ١٣٢ - ١٣٣.

وذكرها أيضا فى مجال تحدى إبليس اللعين للذات العلية، وإعلانه أنه سيغوى الخلق، ومن ضمن إغوائه إياهم أن يأمرهم بتقطيع آذان الأنعام وتشقيقها وجعل ذلك علامة لتحريم أكلها كما فعلوا بالبحيرة والسائبة [(١)] قال تعالى حاكيا قول الشيطان ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ النساء: ١١٩ [(٢)].

وذكرها الله عند أمره سيدنا إبراهيم أن يؤذِّن فى الناس داعيا إياهم إلى الحج

[(١)] وقد سبق تفصيل ذلك فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

[(٢)] يبتكن: يقطعن.

وبين له أن الناس سيأتون إليه من كل مكان بعيد ماشين، أو راكبين جمالا مهزولة من طول السفر، ليشهدوا منافع لهم من التجارة وغيرها، وليسبحوا الله ويذكروا اسمه على ما رزقهم به من بهيمة الأنعام، وأمرهم أن يأكلوا منها ويطعموا الفقراء. قال تعالى ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ الحج: ٢٧ – ٢٨.

وذكر الله فى نفس السورة أنه جعل لكل أمة مؤمنة من الأمم السابقة مكانا يذبحون فيه ما يتقربون به إلى الله، ويذكرون اسمه عليه عند ذبحه مدركين نعمته عليهم برزقهم بهذه الأنعام ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ﴾ الحج: ٣٤.

وعند ذكر الله وسائل الحياة من ماء ونبات أشرك الناس والأنعام فى الانتفاع بها فقال ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ ۗ﴾ طه: ٥٣ – ٥٤.

وقال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ الفرقان: ٤٨ – ٤٩.

وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ السجدة: ٢٧.

وقال تعالى ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ النازعات: ٣١ – ٣٣.

وقال أيضا ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١

مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ عبس: ٢٧ - ٣٢.

وقد وردت النَّعَم بمعنى الأنعام مرة واحدة فى القرآن فى سورة المائدة عند الحديث عن جزاء من يقتل صيدا وهو محرم بالحج فذكرت أن جزاءه أن يذبح شيئا مماثلا للصيد فى الحجم من الأنعام ويتصدق بلحمه، قال تعالى ﴿ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ المائدة: ٩٥.

أنواع من الأنعام ذكرت منفردة:

وردت فى بعض آيات القرآن الكريم أنواع من الأنعام غير مقترنة بأنواع أخرى منها، بل منفردة وحدها. وهذه الأنواع هى الإبل والبقر والغنم. وسأتناول الآيات التى وردت فيها بإيجاز.

الإبـــــل:

وردت الإبل بلفظها فى سورة الغاشية فى مجال لفت الله نظر عباده إلى مظاهر قدرته فى خلقه ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ الغاشية: ١٧.

كما وردت بألفاظ البُدْن، والجمل والناقة، والجِمَالة، فأما البُدْن- بلفظ الباء وسكون الدال- فهى جمع بدنة وهى الجمل أو الناقة وقد وردت فى آية واحدة تتحدث عن أن البدن من شعائر الله فى الحج، وتطلب من الناس أن يذكروا اسم الله وهى واقفة صفوفا للذبح، فإذا تم الذبح وسقطت على جنوبها فلأصحابها أن يأكلوا منها. ويطعموا الفقير سائلا أو غير سائل، ثم بين الله أنه سخر هذه الإبل للناس يأكلون لحومها وينتفعون بها ويشكرون الله على ما أنعم به عليهم ويكبرونه قال تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ

جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ[1] كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الحج: ٣٦.

وكذلك ورد لفظ الجمل فى آية واحدة عندما أكد الله استحالة دخول المكذبين المستكبرين الجنة، وعلق على دخولهم الجنة على دخول الجمل فى ثقب الإبرة،وهو مستحيل قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ الأعراف: ٤٠.

كما وردت الجِمَالَة –وهى جمع جمل– فى سورة المرسلات عندما أراد الله أن يشبه الشرر المتطاير من نار جهنم فى الضخامة والصفرة، فشبهه بالقصر وبالجمال الصفر، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ المرسلات: ٣٢ – ٣٣.

وأما الناقة فقد وردت فى قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، حينما أرسل الله إليه الناقة ليختبر بها قوم ثمود﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ القمر: ٢٧.

فقد أخبرهم نبى الله صالح أن الناقة ستقاسمهم الماء الذى يستقون منه لها يوم ولهم يوم﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ الشعراء: ١٥٥.

وأن عليهم أن يتركوها ولا يمسوها بسوء، وإلا أخذهم العذاب الأليم قريبا ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ هود: ٦٤.

ولكنهم عقروها ولم يأبهوا لكلام صالح بل تحدوه أن يأتيهم بالعذاب الموعود فرجفت بهم الأرض فأهلكتهم ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ الأعراف: ٧٧ – ٧٨.

---

(١) القانع هو الذى يرضى بما يعطى دون سؤال، والمعتر هو السائل.

البقرة:

أما البقرة فقد وردت فى قصة موسى مع قومه -وسميت أطول سورة فى القرآن باسمها- فى حادثة تؤكد ما يتميزون به من عناد ولجاج، فقد قُتل عندهم قتيل، وأرادوا أن يعرفوا قاتله فطلب منهم موسى أن يذبحوا بقرة فلم يتقبلوا الأمر بطاعة، بل ظلوا يسألون عن البقرة لونها وطبيعتها، ولما أحضروا البقرة أخيرا طلب منهم أن يضربوا القتيل بجزء منها فأحياه الله واعترف بقاتله قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ البقرة: ٦٧ - ٧١.

كما وردت فى قصة يوسف أيضا، فى الرؤيا التى رآها الملك وفسرها يوسف له -وهو فى السجن- وكان تفسيرها له سببا فى تمكينه فى أرض مصر يتبوأ منها حيث يشاء، وتتلخص الرؤيا فى أن الملك رأى سبع بقرات سمان، فجاءت سبع بقرات مهزولات فأكلتهن، كما رأى سبع سنبلات خضر وسبعا يابسة، وقد فسرها يوسف أن مصر ستصيبها سبع سنوات من الخصب والرخاء ثم يعقبهن سبع سنوات كلها جدب وقحط.

قال تعالى﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ يوسف: ٤٣.

ولما عجزت حاشية الملك عن تفسيرها أُرسلت إلى يوسف فى سجنه فحكى لهم كما حكى القرآن ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ يوسف: ٤٧ – ٤٨.

العِجْل:

وهو ولد البقرة، وقد ورد ذكره أيضا فى قصة موسى عندما صنع لهم السامرى[١] شكل عجل من الذهب الذى أخذوه من نساء المصريين قبل رحيلهم، ثم ألقى عليه قبضة من أثر حافر حصان جبريل فأخذ يحدث صوتا كالخوار فعبده بنو إسرائيل.

وقد ورد ذكر العجل فى عدة آيات منها قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ البقرة: ٥٤.

وفيها أيضا ﴿ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ البقرة: ٩٢ وقوله تعالى فى الأعراف ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ الأعراف: ١٥٢ والقصة مفصلة فى سورة طه.

كما ورد ذكر العجل عند الحديث عن ضيف إبراهيم من الملائكة الذين أرسلهم الله إليه فى صورة بشر ليبشروه بابنه إسحاق فسارع عندما رآهم – ولم يعرف حقيقتهم – إلى ذبح عجل سمين مشوى لاستضافتهم كى يأكلوا منه قال تعالى فى سورة هود ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ هود: ٦٩.

---

(١) والقصة مفصلة فى الجزء الأول من هذه الموسوعة.

وقال فى سورة الذاريات ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ الذاريات: ٢٤ – ٢٦

الغنم:

وقد ورد ذكر الغنم فى قصة تبين فطنة سيدنا سليمان، وقدرته على الحكم الصحيح. وذلك أن رجلا ذهب إلى سيدنا داوود يشكو له رجلا أطلق غنمه ليلا، فنزلت زرعه فأكلته ولم تترك له شيئا. فأمر داوود بأن يأخذ الذى أتلفت الغنم زرعه غنم الرجل عوضا عن الزرع. وكان سليمان حاضرا وكان صغيرا فقال: غير هذا الحكم أوفق وأرفق. فسأله أبوه: وما هو؟ قال: يتولى الرجل صاحب الغنم زراعة أرض المجنى عليه حتى يعود الزرع فيها كما كان. وفى أثناء هذه المدة يأخذ صاحب الأرض الغنم ينتفع بصوفها ولبنها إلى أن يتسلم زرعه كما كان قبلا. فيعيد الغنم إلى صاحبها. وقد ذكر الله تعالى أنه فهَّم سليمان هذا الحكم وأثنى عليه وعلى أبيه. قال: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ الأنبياء: ٧٨ – ٧٩.

ولإناث الغنم –وهى النعاج– قصة أيضا مع داود عليه السلام فقد ذهب إليه خصمان، وهو منفرد فى مكان عبادته، فكان قد أمر أن يغلق عليه الباب وألا يدخل عليه ففوجئ لهما أمامه، بعد أن تسورا المحراب، فخاف داوود منهما فأخبره أحدهما أن خصمه له تسع وتسعون نعجة أما هو فله نعجة واحدة ولكن خصمه يريد أن يستولى عليها أيضا، فأصدر داوود حكمه بأن خصمه هذا ظالم، وهذه عادة كثير من الشركاء، ثم فوجئ داوود بأنه ليس أمامه أحد فعلم أن هذا اختبار من الله فاستغفر ربه وصلى له ورجع إليه، قال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ

فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ ص: ٢١ - ٢٤.

أنواع أخرى من الحيوان

الخيل والبغال والحمير:

وقد جاءت هذه الأنواع مجتمعة فى ثنايا تعداد الله نعمه على عباده. فذكر منها الخيل والبغال والحمير التى سخرها الله لركوبهم. فقال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل: ٨.

وقد ذكر الله فى الآية متعة نفسية فى هذه الحيوانات إلى جانب المنفعة المادية وهى الركوب. هذه المنفعة النفسية فى اتخاذها زينة، فيبالغ ركابها فى اتخاذ السروج والبرادع، ويعجبون بها لها من نشاط وما فيها من حيوية، ويتباهى كل برشاقة فرسه أو حماره أو بغله، وما أشبه ذلك بما قاله الله فى الأنعام: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ النحل: ٦.

ويثير الانتباه فى هذه الآية ما ختمه الله بها من قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل: ٨.

فهو يتحدث عن هذه الحيوانات على أنها وسيلة ركوب وانتقال ثم يعقب بأنه سيخلق ما لا يعلمه الناس فى زمانهم فى الماضى. فهل لهذا معنى إلا الإشارة إلى وسائل النقل الحديثة التى ينعم بها الناس الآن.

ولم يذكر الله البغال إلا فى هذه الآية ولكنه ذكر الخيل فى آيات أخرى فقد ذكرها على أنها مما زين للناس حبه من الشهوات ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ آل عمران: ١٤.

وقد سبق ذكر الآية عند الحديث عن الأنعام. كما ذكرها فى سورة الأنفال على أنها أهم وسيلة من وسائل القوة، فقد أمر المسلمين أن يعدوا لجهاد الكافرين كل ما يستطيعون من وسائل القوة، ومن الخيل التى تعد وتهيأ للجهاد لكى يخيفوا بها أعداء الله فى الخارج والداخل. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الأنفال: ٦٠.

كما ذكرها عندما استجاب لطلب إبليس إن ينظره إلى يوم القيامة ليغوى ذرية آدم جميعها إلا القليل فأخبره الله أن بوسعه أن يتخذ جميع وسائل الغواية والفتنة فى تحقيق هدفه. ولكنه لن ينجح أبدا فى إغواء عباده المخلَصين لأنه لا سلطان له عليهم وذكر له من وسائل الإغراء الصياح عليهم بجيوشه المكونة من الخيل والمشاة، وهم عصب القوة فى أى حرب فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ الإسراء: ٦٤ – ٦٥.

ثم ذكر الخيل مرة ثالثة عندما بين أن الغنائم التى يغنمها الرسول صلى الله عليه وسلم من الأعداء دون حرب تصير من حقه وحده، وفيها نصيب للفقراء والمساكين وغيرهم لأن المسلمين لم يحركوا خيلهم ولا إبلهم ليخوضوا المعركة فهذه الغنائم فىء للرسول ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الحشر: ٦ – ٧.

وذكر الله الخيل أيضا فى سورة «ص» ولكنه بلفظ الجياد –وذلك عندما عرضت الجياد الكريمة على سليمان فى وقت المساء فلما أُخذت من عنده طلب منهم، أن يردوها عليه، فأخذ يمسح بسيقانها وأعناقها[1]. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ

(١) القصة مفصلة بما فيها من خلاف فى التفسير فى الجزء الأول من هذه الموسوعة.

ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ ص: ٣٠ - ٣٣.

وأما الحمير فقد وردت بلفظ المفرد (حمار). وبلفظ الجمع (حمير) و (حُمر)، فالحمار ورد في سورتين: سورة البقرة في قصة الرجل الذى تعجب من خراب القرية، فتساءل كيف يحييها الله فأماته الله مائة عام ثم بعثه، وقد مر ذكرها عند الحديث عن العام والسنة، وقال تعالى فيها ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ البقرة: ٢٥٩.

والسورة الأخرى هى سورة الجمعة عندما شبه الله تعالى حال اليهود فى عدم انتفاعهم بالتوراة التى أنزلها الله عليهم فيها هدى ونور بالحمار الذى يحمل على ظهره كتبا، فهو لا ينتفع شيئا بما فيها من علم على الرغم من أنها فوق ظهره. قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ الجمعة: ٥.

والحمير وردت فى ثنايا وعظ لقمان لابنه، فهو ينهاه عن الحديث بصوت مرتفع، لأن الصوت المرتفع يشبه صوت الحمير وهو أقبح الأصوات وأنكرها﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ لقمان: ١٩.

ووردت (الحُمُر) وهى أيضا جمع حمار، فى سورة المدثر، فى ثنايا الحديث عن عناد الكفار، وشدة إعراضهم عن الاستماع للرسول صلى الله عليه وسلم، ونفورهم من حديثه، فتعجب الله من هذا الإعراض وابتعادهم عن الرسول. فشبههم بالحمير النافرة التى رأت أسدا أمامها ففرت منه بكل ما تستطيع من قوة وسرعة خوفا من أن يفترسها الأسد، قال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ المدثر: ٤٩ - ٥١.

والقسورة من أسماء الأسد.

الكلب:

وقد ورد الكلب أيضا فى القرآن الكريم، فقد ذكره الله تعالى فى عدة آيات، فذكره فى سورة الأعراف عند الحديث عن الرجل من بنى إسرائيل الذى وهبه الله علم التوراة، فلم يهد به غيره فاشترى به ثمنا قليلا، فغير وبدل ليحقق ربحا لنفسه من وراء ذلك، فشبهه الله بالكلب الدائم اللهاث -وهو إخراج الكلب لسانه مع إحداث صوت- فهو إن زجره أحد أو طرده يلهث، وإن تُرك وشأنه يلهث، قال تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦ .

وذكره فى سورة الكهف. فهو كلب أصحاب الكهف المشهور. وبين الله طريقة حراسته لأصحابه، وهم نيام بالكهف، فهو قد مد ذراعيه أمام باب الكهف ونام، قال تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ الكهف: ١٨.

كما ذكره -وهو يبين اختلاف الناس فى عددهم﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ الكهف: ٢٢.

الذئب:

هو ذئب يوسف المشهور الذى اتهمه أبناء يعقوب عليه السلام كذبا أنه أكل يوسف بعد ما ألقوه فى الجب ليخلو لهم وجه أبيهم كما قالوا وقد لقنهم أبوهم الحجة وهو

لا يدرى عندما طلبوا منه أن يسمح لهم باصطحاب يوسف معهم فقال لهم ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ يوسف: ١٣ – ١٤.

ومع ذلك اتخذوها حجة عندما عادوا إلى أبيهم فى المساء فأخبروه بأن الذئب أكله ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۝١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ يوسف: ١٦ – ١٧.

الفيل:

وأما الفيل فله سورة قصيرة سميت باسمه، وإن كان ذكره فيها ورد عرضا للتعريف بجيش أبرهة الذى كان يبتغى هدم الكعبة، فسماهم الله أصحاب الفيل وذكر أنه أبطل كيدهم ومكرهم ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ﴾ الفيل: ١ – ٢.

القردة والخنازير:

وهذه الحيوانات وردت فى القرآن فى معرض الذم واللعن، فأما القردة فقد ذكرت عند الحديث عن أصحاب السبت الذى خالفوا أمر الله فى تخصيص يوم السبت للعبادة، ولكنهم لم يأبهوا لذلك، بل صادوا فيه الحيتان كما سيجىء وقد أمرهم أن يخرجوا من صورتهم الآدمية إلى صورة القردة المطرودين الأذلاء، وقد ذكر الله ذلك فى سورتين: الأولى البقرة فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ البقرة: ٦٥.

والأخرى فى الأعراف وسيأتى ذكرها عند الحديث عن الحيتان.

كما وردت القردة مع الخنازير، عندما تحدث الله عن بنى إسرائيل فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وقبله، فبين أن شر الناس جزاءً عند الله يوم القيامة أولئك الملعونون الذى جعل الله منهم القردة والخنازير وعباد الطاغوت وهو كل ما يُعبد من دون الله سواء أكان بشرا أم حجرا أم معنى من المعانى كالمال والجاه ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المائدة: ٦٠.

فهل المراد أن الله سخطهم حقيقة قردة وخنازير؟ جمهور المفسرين قال ذلك.

ولكن لا مانع أن يكون المراد أن طباعهم فى نذالتها وحقارتها تشبه طباع القردة والخنازير، بل لا تختلف عنها فى شىء كما نقول: خاض الأسد المعركة، ونعنى جنديا شجاعا.

كما ورد ذكر الخنزير منفردا عن القردة عند الحديث عن المحرمات من الذبائح فكان منها لحم الخنزير، وقد نهى الله عن أكل لحمه نهيا مشددا وبين أنه نجس. قال تعالى ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ الأنعام: ١٤٥

وقد ورد ذكر تحريمه فى عدة سور أخرى هى البقرة والمائدة والنحل وهذا التشديد فى تحريم لحمه لما فيه من ضرر شديد بآكله، فالخنزير من الحيوانات التى تأكل القمامة والقاذورات والنفايات، بالإضافة إلى ما يتعرض له من إصابة بعدد كبير من الطفيليات التى تصيب الإنسان مثل الدودة الشريطية وهذه ليست أقلها فهناك طفيليات أخرى تصيب بأمراض عديدة[1].

---

(١) انظر الدواء والغذاء فى القرآن الكريم ص ١٤٣ وما بعدها.

الطير

وقد ورد ذكر الطير كجنس من مخلوقات الله فى عدة آيات. فقد ذكره الله عندما طلب منه إبراهيم عليه السلام أن يريه كيف يحيى الموتى فقال له ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ ﴾ البقرة: ٢٦٠.

وقد مر ذكر ذلك فى أثناء الحديث عن الجبل والأنبياء وكذلك الطير الذى ذكر الله أن عيسى يشكل من الطير على هيئتها ثم ينفخ فيها فتكون طيرا حقيقيا بإذن الله. وقد ورد ذلك فى سورتين: الأولى آل عمران فى قوله تعالى - وهو يبين معجزات عيسى - ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ﴾ آل عمران: ٤٩.

والأخرى فى سورة المائدة فى قوله تعالى ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ﴾ المائدة: ١١٠.

كما ذكر الله الطير دليلا على قدرته تعالى حيث تحلق هذه الطير فى السماء، وتسير صفوفا فلا تقع، فمن يمسكها؟ إنه الله تعالى، قال تعالى ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ النحل: ٧٩.

وكرر هذا المعنى فى قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ الملك: ١٩ ومعنى يقبضن أى يطوين أجنحتهن بعد بسطها.

وكان للطير شأن مع داوود وسليمان عليهما السلام، فقد أمر الله الطير أن تسبح مع داوود مشتركة مع الجبال فقال تعالى ﴿ ... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ الأنبياء: ٧٩.

وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ سبأ: ١٠.

وقال تعالى عنه أيضا ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۞ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ص: ١٨ - ١٩.

وأما سليمان فقد ذكر فضل الله عليه إذ علمه وأباه لغة الطير﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ النمل: ١٦.

كما كانت الطير من جنده مع الجن والإنس، وكانوا يجتمعون جميعا ليأتمروا بأمره، قال تعالى﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ النمل: ١٧.

وقد ورد فى رؤيا أحد السجينين المشاركين ليوسف عليه السلام فى السجن أنه كان يحمل خبزا فوق رأسه، وكانت الطير تأكل منه ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ يوسف: ٣٦.

وقد فسرها يوسف بأنه سيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ يوسف: ٤١.

وقد شبه الله الذى يشرك بالله بمن يسقط من السماء فتخطفه الطير وتفتك به فقال تعالى: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ الحج: ٣١.

كما ورد ذكر الطائر فى القرآن عندما قرر الله تعالى أن كل دابة تدب على الأرض وكل

طائر يطير بجناحيه أمم مثل الناس، لها نظامها وطباعها وعاداتها، قال تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ...﴾ الأنعام: ٣٨.

ولم يخص الله من الطير نوعا بذكر اسمه إلا الغراب والهدهد.

الغراب:

وقد ورد ذكر اسمه فى قضية ابنى آدم حينها قتل أحدهما الآخر حسدا له عندما تقبل الله قربانه، ولم يتقبل قربان أخيه، وبعد قتله تحير فى أمر جثته ماذا يصنع بها؟ فرأى غرابا -أرسله الله لتعليمه- يحفر فى الأرض ليدفن غرابا آخر ميتا كان معه، فأحس ابن آدم بالألم والخجل لعجزه أن يفكر فى دفن أخيه بالطريقة التى دفن بها الغراب زميله، ثم ركبه الندم لقتل أخيه.

قال تعالى ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ المائدة: ٣١.

الهدهد:

فأما الهدهد فقد ورد ذكره فى قصة سليمان عليه السلام فقد كان الطير من جميع الأنواع يَصُفُّ فوق رأس سليمان ليظلله ولكل طائر مكان معلوم يقف فيه، فرأى يوما مكان الهدهد خاليا، وعجب من غيابه، وهدد بذبحه أو تعذيبه عذابا شديدا، إن لم يأت بعذر واضح يبرر غيابه، وعاد الهدهد، وكان عذره أنه ذهب لمملكة سبأ فى اليمن، فرأى ملكتهم وهى امرأة واسعة الملك والسلطان، وكانت تعبد الشمس إلى

آخر القصة المعروفة.

قال تعالى ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآيات (النمل: ٢٠ – ٢٦).

الحشرات

ذكر القرآن أنواعا من الحشرات فى مناسبات مختلفة. فذكر البعوضة، والجراد، والقمل، والنحل، والذباب، والنمل، والعنكبوت.

البعوضة:

ورد ذكرها فى مجال حديث الله تعالى عن حرصه على بيان الحق للناس بكل طريقة ممكنة، ومنها ضرب الأمثال، فهو لا يستحيى أن يضرب مثلا لبيان ما يريده بأقل المخلوقات مثل البعوضة، وما هو أكبر منها، وأما الذين عمَّر الإيمان قلوبهم فيتقبلون هذا المثل بالرضا ويعرفون أنه الحق من ربهم ويهتدون به، وأما المنافقون وضعاف الإيمان فيسخرون منه.

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ البقرة: ٢٦.

يقول المفسرون عندما ضرب الله أمثلة بالذباب والعنكبوت (وسيأتى الحديث عنهما) سخر اليهود من ذلك وقالوا: ذلك لا يشبه كلام الله، وما أراد الله بهذا؟ فنزلت هذه الآية.

الجراد والقمل والضفادع:

ورد ذكر الجراد فى آيتين: الأولى تتحدث عن أنواع العذاب الذى صبه الله على

فرعون وقومه لما كذبوا بموسى ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل، فأرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم... وآية بعد أخرى. فكان كل من هذه الأشياء يحل بهم فيفسد حياتهم وزروعهم ومياههم. فيستغيثون بموسى أن يسأل الله ليكشف لهم العذاب، فيؤمنون به، وإذا اكشفهم الله عنهم عادوا إلى ما كانوا فيه.

قال تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ الأعراف: ١٣٣ - ١٣٥.

والآية الأخرى وردت فى سورة القمر عندما شبه الله خروج الناس من القبور عندما يُنفخ فى الصور، وقد خشعت أبصارهم، وهم لكثرتهم يشبهون الجراد المنتشر. (والمعروف من أن الجراد إذا انتشر يخرج أرجالا كثيرة تحجب السماء، وتبلغ مساحتها عشرات الأميال).

قال تعالى ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ القمر: ٦ - ٧.

وأما القُمَّل، وهى الحشرة المعروفة، فلم ترد إلا فى آية سورة الأعراف وكذلك الضفادع (والضفادع ليست حشرة ولكنها حيوان برمائى ولقد ذكرتها هنا لورودها وحدها هنا مع الحشرات).

النحل:

وهى من أهم الحشرات التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم، لما أودعه الله فيها من خير للبشرية تتمثل فيما تفرزه من عسل عظيم القيمة الغذائية والدوائية، ولما

فى خلق النحل من دلالة على قدرة الله العظيمة حيث أودع فيه غرائز تنظيمية لا يملك الإنسان إزاءها إلا أن يحنىَ رأسه خشوعا وإجلالا لخالقه، وفى القرآن سورة متوسطة الطول سميت باسم النحل، وفى هذه السورة آيتان تتحدثان عن النحل وهما: مفعمتان بالإيحاءات والدلالات. قال تعالى﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل: ٦٨ - ٦٩

فالوحى الذى أوحاه الله إلى النحل هو تلك الغريزة التى ركبها فيه، وهداه بها إلى الأماكن التى يوجد بها الزهر ليمتص رحيقه، ويؤثر فى لون عسله وطعمه.

فالله قد ألهم النحل بأن تتخذ بيوتا فى الجبال، وعلى الشجر، وفيما يغرسه الإنسان ويبنيه من المنازل، والمعروشات من النباتات، وما يهيئه الإنسان من خلايا للنحل وأمثالها.

ثم ألهمه الله أن يأكل من كل الثمرات التى تناسب طبيعته، وتساعد على إفراز العسل من أزهار البرسيم، والموالح وغيرها.

ثم ألهمه بأن يسير فى الطرق التى ذللها الله، وهداه إلى سلوكها ليصل إلى تلك الثمرات، ثم يأكل منها ليساعد على إخراج هذا الشراب المختلف الألوان والمذاق، والذى أودع الله فيه ما يكون فيه شفاء للناس، ثم يختم الله الآية ببيان أن فى خلق النحل وما يفرزه من عسل، وما يهتدى إليه من طريق لدليلا واضحا على قدرة الله وربوبيته، ولكن لن يصل إلى هذا إلا من يتفكر فى خلق الله.

ولنقرأ ما أورده مؤلفا كتاب الغذاء والدواء فى القرآن الكريم [١]، حول النحل

(١) د. جمال الدين مهران، د. عبد العظيم حنفى.

لنتفكر ونتدبر قدرة الله وعظمته.

قالا: وتعيننا المكتشفات الحديثة فى علم سلوك الحيوان على تفهم ما تعنيه العبارة القرآنية الرائدة والواردة فى الآية الكريمة ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾.

فالنحل يهتدى إلى المواطن التى تتطلب فيها غذاءه فى دائرة قد يبلغ قطرها خمسة كيلو مترات، ثم يعود إلى عشه مستعينا فى ذلك بحواس النظر والشم ومقدرة محدودة على تمييز الألوان، هذا فضلا عن تكيف أجزاء من جسمه لجمع الرحيق، وحبوب اللقاح من النبات، ومن العجب حقا أن النحلة تستطيع أن تتفاهم مع قريناتها فى العش، وتعريفها بالسبيل إلى موضع الغذاء على وجه التحديد بلفة الزاوية بين موضع الغذاء والشمس باتخاذها اتجاها معينا فى أثناء هذه التحركات الشبيهة بالرقص، ولرقصات النحل علاقة قوية بتحديد المسافة التى بعدها مصدر الغذاء عن الخلية، فإذا كان مصدره قريبا وعلى بعد أقل من مئة متر تؤدى النحلة رقصة دائرية فى حلقات أو شبه حلقات، وإذا زادت المسافة على مائة متر تقوم النحل برقصة هز الذيل حيث تقوم بنصف لفة إلى أحد الجانبين، تجرى بعدها فى خط مستقيم إلى نقطة البداية، وهى تهز بطنها بسرعة إلى الجانبين، ثم تعمل نصف لفة أخرى إلى الجانب الآخر، وتعود فى خط مستقيم إلى نقطة البداية، وكلما زاد بُعد مصدر الغذاء زاد طول الجرية المستقيمة وزاد عدد هزات البطن فيها. وكل عدد اللفات فى الوحدة الزمنية. ويختلف عدد الهزات، وسرعة تأدية الرقصة بالبعد عن مصدر الغذاء، بل إن المعلومات التى يعطيها النحل الراقص تدل على المجهود والوقت اللازمين للوصول إلى مصدر الغذاء وارتفاعه....

وفى الأيام القاتمة تستعين النحلة فى ذلك بتحديد زوايا استقطاب الضوء إذا

لم يكن السحاب كثيفا شديد القتامة، وإلا أحجمت عن الطيران البعيد، وتطير شغالات النحل بسرعة حوالى عشرين كيلو مترا فى الساعة، عند خروجها من الخلية، ولكنها تكون أسرع عند عودتها محملة بالرحيق أو حبوب اللقاح حيث تبلغ سرعتها حوالى ٢٥ كيلو مترا".

ويقولان عن قوله تعالى ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾.

" تتباين خواص العسل الذى ينتجه النحل بتباين مصادر الرحيق، أو المواد السكرية الأخرى وأنواع الزهور والأشجار التى جُمع الرحيق منها، وباختلاف سلالات النحل وباختلاف فصول السنة، وعلى هذا يتباين العسل طعما وصنفا ولونا ونكهة ورائحة، كما تتفاوت نسبة السكر المحول به، ونسبة سكر العنب إلى سكر الفاكهة فيه، ومن ثم تختلف أيضا كثافته وقابليته للتجمد والانعقاد والتحبب عند انخفاض درجة الحرارة أو بعض العوامل الأخرى. وعسل النحل الناتج من رحيق أزهار البرسيم والموالح له أفخر نكهة..."

وعن قوله تعالى ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ يقولان:

"وعسل النحل غذاء كامل وسهل الهضم والتمثيل كما يستعمل للتحلية، ومصدر سريع للطاقة، ويدخل فى صناعة الأشربة المقوية، كما أنه مصدر لأملاح العناصر اللازمة للجسم، وهو ملين طبيعى، ومطهر للأمعاء، ومسكن لآلام الكحة، والتهاب الحلق، وآلام المفاصل، وتقلص العضلات، ويساعد على النوم، ومفيد فى حالات الحمى، ومضاد لبعض أنواع الحساسية، ولما يحويه عسل النحل من نسبة كبيرة من الجلوكوز والفركتوز، -وهما آخر مراحل هضم المواد النشوية والسكرية التى تمتص فى الدم- فهو لذلك يريح الجهاز الهضمى، ولا يسبب التهاب الأغشية ويساعد فى

علاج كثير من أمراضه، مثل القرحة والنزلات المزمنة وأمراض الكبد، كما يفيد فى حالات الحميات مثل الالتهاب والتيفود والحصبة، وحالات ضعف القلب والذبحة الصدرية، وتصلب الشرايين. وفى الارتشاحات العمومية الناشئة عن التهاب الكلى الحاد، ويستعمل العسل فى علاج الحروق، ويساعد على سرعة التئامها... وهو يفيد فى تلطيف أثر لسعة النحل. والعسل مفيد جدا للأطفال حيث –إنه بجانب أنه حسن الطعم يستسيغونه، ويزودهم بأملاح العناصر اللازمة للجسم– فإنه مطهر وملين خفيف، ونادرا ما يصاب الأطفال الذين يتعاطونه بالمغص حيث إن امتصاصه يمنع التخمر. وقد أثبت بعض الأبحاث الحديثة أن إضافة عسل النحل للغذاء يقلل زمن تجلط الدم."

وذكر الله العسل فى إحدى آيات سورة محمد وهو يتحدث عن ألوان النعيم الذى سيحظى به المتقون. فذكر أن فى الجنة أنهارا من عسل مصفى من كل شائبة، مع أنهار أخرى من الماء العذب، واللبن الطازج، والخمر التى تلذ الشاربين، قال تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ... ﴾ محمد: ١٥.

الذباب:

ورد الذباب فى القرآن الكريم مثلا لعجز الآلهة التى يعبدها المشركون من دون الله عن فعل أى شىء، مهما ضؤل حجمه، وصغر مقداره، وهو خلق أحقر حشرة ولو تعاونت كل الآلهة من أجل ذلك بل إنها لا تستطيع أهون من ذلك بكثير وهو استرداد ما سلبه الذباب من طعام أو شراب، حينما يضع خرطومه فى أى منهما، فيمتص قدرا لا يكاد يبين ولو بالمجهر، فلا تستطيع هذه الآلهة المزعومة أن تعيده

إلى موضعه، وقد بدأ الله بأكبر شيء وهو الخلق، ثم نزل إلى أحقر شيء وهو استرداد المأخوذ، فما أضعف الطالب وهو الآلهة، وما أضعف المطلوب وهو الذباب.

قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ الحج: ٧٣.

النمل:

وقد جاء ذِكر النمل فى القرآن الكريم مرتبطا بنبى الله سليمان، وبما أتاه الله من المعجزات، فقد تحدث بنعمة الله عليه، فذكر أن الله علمه وأباه لغة الطير كما ذكرت قبلا -ثم تقع حادثة ترينا أن الله علمه لغة الحشرات أيضا، وليس ذلك فحسب، بل علم الله الحشرات أيضا هيبة سليمان، وضخامة جنده، فقد جمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، وساروا صفوفا منتظمة، يقودهم سليمان، حتى جاءوا بوادى النمل -عرف بذلك لكثرة النمل فيه- فرأت نملة هذا المنظر الرهيب المهيب، فخاطبت النمل محذرة إياهم كى يتجنبوا هذا الموكب الضخم فيدهسهم سليمان وجنوده، وهم لا يدرون بهم. سمع سليمان قولها هذا فتبسم ضاحكا من حرص النملة على بنات جنسها، ومزهوا بما أعطاه الله من نعم تتمثل فى هذا الملك العريض، وعلمه بلغة الحشرات، ولذلك اتجه إلى الله طالبا منه أن يوفقه إلى شكر نعمته عليه وعلى والديه، وإلى العمل الصالح الذى يرضى الله، وأن يسلكه فى زمرة الصالحين من عباده. قال تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ النمل: ١٨ – ١٩.

وجدير بالذكر أن إحدى السور سميت بالنمل، وهى السورة التى ورد ذكر النمل فيها.

العنكبوت:

وللعنكبوت أيضا سورة باسمه، وقد شبه الله فيها حال الكافرين فى اتخاذ آلهة من دون الله يرجون منها الحماية والنصر، بحال العنكبوت التى نسجت لها بيتا تظن أنه يحميها من أعدائها، وبيتها هذا أضعف البيوت، فطفل صغير كفيل بأن يهدمه عليها بلمسة خفيفة من يده، وحشرة كبيرة قادرة على أن تقتحمه عليها وتلتهمها. قال تعالى ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ العنكبوت: ٤١.

الزواحف

وقد ورد ذكر الزواحف بوجه عام فى القرآن الكريم مندرجا فى عبارة تبين إحدى خصائصها، وهى المشى على البطن. وذلك فى قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ النور: ٤٥.

ولكن لم يذكر منها بلفظه إلا الحية والثعبان، ولم يذكر على أنهما كائنات حقيقية، بل كائنات خلقها الله لإثبات نبوة موسى أمام فرعون ومعجزة له، وذلك أن الله عندما كلم موسى، وأوحى إليه برسالته كانت مع موسى عصى فأمره الله بإلقائها على الأرض، فلما ألقاها تحولت إلى حية تسعى فى الأرض. قال تعالى ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ طه: ١٧ - ٢٠

ومثل هذا ورد فى سورتى النمل والقصص، ولكن ذكر بدل الحية «الجان» والجان كما يقول المفسرون حية خفيفة.

ففى سورة النمل بعد أن أوحى الله إلى موسى أنه هو الله العزيز الحكيم أمره أن يلقى عصاه، فلما ألقاها رآها تهتز كأنها حية فولى مدبرا فأمره الله أن يعود وألا يخاف لأن رسل الله لا تخاف، قال تعالى ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ النمل: ٩ - ١٠

وفى سورة القصص شبيه بهذا المعنى فى قوله تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ

ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴾ القصص: ٣٠ – ٣١.

فلما ذهب موسى إلى فرعون وأخبره برسالته إليه، وأن معه من الآيات ما يؤيد قوله، فطلب منه أن يُظهر هذه المعجزة فألقى بعصاه فتحولت إلى ثعبان بين ظاهر، قال تعالى ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾ الأعراف: ١٠٦ – ١٠٧.

ومثل هذا ورد فى سورة الشعراء، فعندما رد موسى على فرعون تأنيبه إياه بإخباره أنه جاء بمعجزة واضحة ظاهرة، طلب فرعون أن يأتىَ بها إن كان صادقا، فألقى موسى عصاه فتحولت إلى ثعبان واضح ظاهر، قال تعالى ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الشعراء: ٣٠ – ٣٢.

ونلاحظ أن القرآن استخدم لفظ ثعبان عند إلقاء موسى عصاه أمام فرعون، ولفظ حية أو جان عند إلقاء موسى عصاه فى حضرة الذات العلية، والسر فى ذلك أن المعنى اللغوى الدقيق للفظ ثعبان هو أضخم الحيات وأكبرها حجما وهو الذكر من الحيات، فكأن الله أراد بذكر الثعبان مع فرعون ليبين أن العصا عندما تحولت إليه حية أمام فرعون كانت أضخم وأبشع لإلقاء الرعب فى نفس فرعون وأتباعه، وأما عند إلقاء موسى لها أمام الله فكانت فى صورة أخف وهى الحية أو الجان، كى لا يكون خوف موسى أكبر.

الكائنات البحرية

والبحر الذى تعدل مساحته ثلاثة أرباع الكرة الأرضية زاخر بالمخلوقات التى تفوق المخلوقات التى تدب على اليابسة عددا ونوعا ولا يعلم حصرها إلا الله سبحانه، والأنهار كذلك حافلة بمخلوقاتها ولم يذكر الله فى القرآن الكريم السمك الذى يطلق على معظم ما فى البحر من كائنات، ولكنه ذكر لحمه فى معرض امتنانه على عباده بها أنعم عليهم فقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ النحل: ١٤ وكرر هذا المعنى فى سورة فاطر فى قوله تعالى مشيرا إلى البحر والنهر ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ فاطر: ١٢.

ولم يخص الله بالذكر إلا الحوت، واللؤلؤ والمرجان، فأما اللؤلؤ والمرجان فسأذكرهما فى الفصل الأخير (المعادن والحلى النفسية).

الحوت:

والحوت -كما هو معروف- نوع من الكائنات البحرية الضخمة وإن كان ينتمى إلى طائفة الثدييات، وجمع الحوت حيتان، وقد ورد ذكر الحوت فى موضعين: الأول فى قصة موسى عليه السلام عندما كان متجها إلى العبد الصالح الذى آتاه الله العلم من لدنه، وأراد موسى أن يتلقى منه بعض هذا العلم، وقد سار هو وفتاه جاديْن فى البحث عنه، وكانت علامة لقائه فى مكانه أن يتسرب الحوت الذى كان معهما إلى البحر، وبينما موسى فى الطريق طلب من فتاه أن يعد غداءهما لشعورهما بالتعب

والجوع فتنبه الفتى إلى تسرب الحوت منه ونسيانه ذكر ذلك لموسى، فعاد موسى إلى المكان الذى تسرب منه الحوت، فوجد العبد الصالح.

قال تعالى﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ الكهف: ٦٠ - ٦٤.

والموضع الآخر فى قصة يونس، وللحوت فى حياته أثر كبير حتى لقد اشتهر بأنه صاحب الحوت، ولقد نهى الله تعالى رسوله محمَّدًا صلى الله عليه وسلم أن يكون مثل صاحب الحوت فى ضيقه بقومه، وعدم صبره عليهم فأخذ يدعو الله وهو فى أشد الضيق -عندما كان فى بطن الحوت- فلولا أن تداركه الله بلطفه، لأُلقى فى العراء وهو مستحق للذم واللوم ولكن الله اصطفاه وجعله من الصالحين قال تعالى﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ القلم: ٤٨ - ٥٠.

ومن أسماء الحوت (النون) وقد كنى الله به عن يونس أيضا فجعله صاحبه وذكر أن صاحب النون هذا ترك قومه مغاضبا لهم، وظن أنه يستطيع أن ينجوَ من عقاب الله، فأخذ يسبح الله فى ظلمات بطن الحوت، فاستجاب الله ونجاه من الغم. قال تعالى ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنبياء: ٨٧ - ٨٨.

وفى سورة الصافات يذكر الله تعالى أن يونس فر من قومه لما عاندوه ورفضوا الإيمان، إلى سفينة مزدحمة بالركاب، وفى وسط البحر خشي الربان عليها من الغرق لكثرة من فيها فألقى قرعة ليلقى أحد الركاب فى البحر نتيجة لها ليخفف السفينة، فأصابت القرعة يونس فأُلقى فى البحر فابتلعه الحوت وهو مستحق للوم فلولا تسبيحه لبقى فى بطنه إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الصافات: ١٣٩ - ١٤٤.

وأما الحيتان فقد وردت فى قصة أصحاب السبت، وهم قوم من بنى إسرائيل محرم عليهم العمل يوم السبت، بل عليهم أن يقضوه فى العبادة، وكانوا يقيمون فى قرية مطلة على البحر، فكانوا يشتغلون بالصيد، وأراد الله أن يختبر إيمانهم فجعل الحيتان تظهر لهم طافية على سطح الماء فى يوم السبت، وفى غير يوم السبت لا يظهر لها أى أثر فاحتالوا على ذلك بأن أقاموا بركة حصروا فيها الحيتان يوم السبت، ثم يصيدونها فى الأيام التالية، وقد عاقبهم الله على ذلك فقد جعلهم قردة أذلاء.

قال تعالى ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ الأعراف: ١٦٣.

ثم يقرر الله فى آية أخرى أنهم تجاوزوا الحد فى عصيانهم. وارتكابهم ما نهى الله عنه، فجعلهم الله قردة أذلاء، قال تعالى﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ الأعراف: ١٦٦.

النبات

والنبات كما هو معروف فى علم الأحياء -كل ما تُخرج الأرض من زرع وشجر وثمر وزهر- وقد ورد هذا المعنى فى القرآن الكريم فى عدة آيات كقوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ الأنعام: ٩٩.

وقوله تعالى﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ يونس: ٢٤، وقريب من هذا قوله تعالى ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ الكهف: ٤٥ وقال تعالى فى سورة طه ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ طه: ٥٣.

ولكن لفظ النبات ورد أيضا فى القرآن على سبيل المجاز فالله يسمى التنشئة الحسنة للطفل بالنبات كما قال تعالى عن مريم عليها السلام ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ آل عمران: ٣٧.

كما يسمى خلق الناس من الأرض وإنشاءهم فيها بالنبات قال تعالى على لسان نوح لقومه ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ نوح: ١٧ .

وأنواع النبات كثيرا ما تأتى فى الآيات القرآنية وهى تشمل عدة أنواع وقلما يذكر نوع واحد منفردا. لذلك سأبدأ بهذه المجموعات.

المجموعات النباتية

وردت مجموعات نباتية متعددة فى عدة آيات من القرآن الكريم، ويتصدر معظم المجموعات النخيل والأعناب، ولعل ذلك لكثرتها فى بلاد العرب، وهذه المجموعات قد تأتى للدلالة على قدرة الله، أو على فضله لعباده، وإن كان كلاهما يتلازمان كثيرا، كما تأتى هذه المجموعات عند الحديث عن نعيم الآخرة.

أ- في الدنيا:

يقول تعالى واعظا عباده أن يكون إنفاقهم خاليا من الرياء، فيمثل لهم حال المنفقين رياء فى أن إنفاقهم يضيع سُدًى دون أن ينفعهم بشىء، مع شدة حاجتهم لذلك بحال رجل له حديقه فيها نخيل وأعناب ومن كل الثمرات وقد أصابته الشيخوخة وأولاده صغار ضعاف، فأصاب الحديقة إعصار فيه نار فأحرقها.

قال تعالى ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ البقرة: ٢٦٦.

وفى سورة الأنعام يدلل الله على قدرته وعلى إنعامه على عباده فيذكر إنه أنزل المطر، فأخرج به من كل أنواع النبات، وأخرج فى النبات الفروع الخضراء التى تحمل الثمرات ذوات الحب الذى ينضم بعضه إلى بعض كما فى سنابل القمح وفى الذرة وغيرهما. كما يخرج بسببه النخيل الذى ينتج من طلعها -وهو أول ما يظهر

منها- سباطات البلح. وهى قريب بعضها من بعض. كما يخرج بسبب المطر البساتين الحافلة بالأعناب والزيتون والرمان، بعضها متشابه فى أوراقه وأشجاره، وبعضها غير متشابه، ثم يدعو الله عباده أن يتأملوا فى منظر هذا النبات المتنوع عند إثماره وعند نضجه، ففى ذلك دلالات قوية على وجود الله وقدرته لمن ملأ الإيمان قلبه.

قال تعالى﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام: ٩٩

ثم يكرر جزءا من هذا المنظر الشامل المذكور فى الآية السابقة، فى نفس السورة، يذكر تعالى أنه مكن الناس من إنشاء بساتين زروعها معروشة على الأرض كالبطيخ، وغير معروشة بل لها ساق كالنخيل، وفى هذه البساتين النخيل والأعناب التى يختلف طعم كل منها عن الآخر، فللعنب طعم يخالف البلح، وفيها أيضا الزيتون والرمان يتشابه منظرهما فى الورق الأخضر، ويختلف طعم كل منهما، ثم يدعو الله عباده أن يأكلوا من هذا الثمر وأن يؤدوا حق الفقراء يوم حصاده.

قال تعالى﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ الأنعام: ١٤١.

وفى سورة الرعد يلفت الله نظر الناس إلى أمر عظيم الدلالة على قدرته وهو أن فى الأرض قطعا يجاور بعضها بعضا فيها بساتين من أعناب وفيها زروع مختلفة الأنواع، وفيها نخيل بعضها نخلات أصلها واحد، وفروعها متباعدة وبعضها نخلات منفردة كل نخلة على حدة، هذه الأشياء المتنوعة مع تجاورها فى المكان، تسقى أيضا من مصدر

واحد للماء، ومع ذلك يختلف مذاق كل منها عن الآخر، ويكون بعضها مفضلا على بعض فى الطعم، أليس فى ذلك دلالة على قدرة الله؟ بلى... ولكن لمن يستخدمون عقولهم فى التأمل والتدبر.

قال تعالى ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الرعد: ٤.

وامتنَّ الله على عباده أن خلق لهم النخيل والأعناب التى يستفيدون منها فائدة كبيرة فهم يتخذون من ثمراتها الخمر التى ترضى أمزجتهم، والرزق الحسن الذى يتغذون به، فمن البلح والعنب تتخذ الخمر، فالبلح والعنب من الفواكه اللذيذة، وإذا جففا صارا تمرا وزبيبا وهما غذاء جيد وفاكهة مستحبة.

قال تعالى ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ النحل: ٦٧.

يقول الطبرى: إن هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر، وأقول إنها تمهيد لذلك فقد لفتت الأنظار إلى مضار الخمر بالإيحاء حيث ذكرت نتيجتها وهو السكر الذى ينفر كل إنسان من أن يوصف به، كما جعلت مقابله الرزق الحسن وشتان ما بين الأمرين وفى سورة «المؤمنون» يتحدث الله عن نعمه على عباده فقد أنزل المطر من السماء، فتسبب عنه ازدهار الأرض، ونشأت حدائق النخيل والأعناب والفواكه الكثيرة التى يأكلون منها. كما نشأ عن المطر ازدهار شجر الزيتون الذى لم يصرح بذكر اسمه، بل ذكر شجرته وبين أنها شجرة تخرج فى سيناء حول طورها، وهذه الشجرة يستفاد بزيتها المشهور، وثمارها التى يصبغ منها الآكلون خبزهم أو كما نقول الآن: (يُغَمِّسون بها).

قال تعالى ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾ المؤمنون: ١٩ - ٢٠.

وحذر نبى الله صالح قومه ثمود على بطرهم وكفرهم بنعمة الله حيث أنعم عليهم بالبساتين وجداول الماء تحيط بها لترويها، وبالزروع المختلفة، والنخل ذى الثمر اللين اللذيذ.

قال تعالى على لسان صالح ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ الشعراء: ١٤٦ - ١٤٨.

وذكر الله أن من دلائل قدرته على إحياء الموتى تلك الأرض الجدبة التى لا تنبت، فما أشبهها بالميت، ولكن عندما ينزل عليها الماء تحيا وتنبت الحب الذى يأكل منه الناس، وتزدهر فيها بساتين النخيل والأعناب، وتتفجر حولها جداول الماء لترويها، وذلك ليأكل الناس من ثمار النخيل والأعناب، التى لم تصنعها أيديهم، وليس فى قدرتهم ذلك، ولكنه رزق الله، فما لهم لا يشكرون الله على نعمه.

قال تعالى ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ يس: ٣٣ - ٣٥.

وامتَنَّ الرحمن على عباده بنعم كثيرة منها الأرض التى خلقها لهم ممهدَة ليعيشوا فيها، وجعل فيها الفاكهة، والنخل التى جعل لثمرها أول ما يطلع أوعية تضمها، والحب من حنطة وشعير يحتويان على التبن، والريحان ذا الرائحة الطيبة.

قال تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ الرحمن: ١٠ - ١٢.

وفى سورة «ق» يذكر الله أنه أنزل من السماء ماء مباركا وهو المطر ووصفه بالبركة لأثره العظيم فى الأرض- فكان من نتيجته إنبات البساتين، والحبوب التى تحصد ويأكلها الناس، والنخل العالية الشامخة ذات الثمر المصفوف بعضه بجوار بعض، وهذا كله من أجل رزق العباد.

قال تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ ق: ٩ ١١.

وفى سورة عبس يقول تعالى ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ عبس: ٢٤ - ٣١.

وقد جمع الله فى الآيات السابقة بين الحب والعشب والفاكهة مع تخصيصه بالذكر بعض أنواع الفاكهة كالعنب وثمر النخل وهو البلح وجمع بين طعام الإنسان والحيوان، ولذلك ختم الآيات بقوله ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ النازعات: ٣٣.

والقضب هو كل شجرة طالت وبسطت أغصانها، ومن معانيه أيضا الشجر الرطب يقطع مرة بعد أخرى، والحدائق الغلب هى الكثيفة الشجر، ومفردها أغلب وغلباء، والأب هو العشب رطبه ويابسه.

وذكر الله فى سورة «التين» «التين والزيتون» وإن كان بعض المفسرين يقولون: «إنهما جبلان فى الشام وهذا فى رأيى هو الأرجح لذكر طور سيناء معهما، وهو جبل وليس هناك تناسب بين هذين اللونين، بين الفاكهة والجبل».

وذكر الله بعض أنواع البقول، وهى نوع من النبات، وذلك فى معرض الحديث

عن ضيق بنى إسرائيل من الطعام الواحد المتمثل فيها رزقهم الله من المن والسلوى، فشكوا إلى موسى وطلبوا منه أن يدعو الله أن يجعل الأرض تخرج لهم مما تنبت به من البقل –والمراد هنا الخضراوات– من جرجير وكرات وغيرهما والقثاء والفوم والمراد به الحنطة والبصل قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ البقرة: ٦١.

كما ذكر الله الأثل والسدر عند حديثه عن كفران سبأ بنعمة ربهم فبدلهم الله بالجنتين الحافلتين بألوان الثمار والفاكهة جنتين ثمارهما مرة بشعة. وفيها بعض أشجار الأثل –وهو شجر طويل مستقيم معمر يؤخذ منه الخشب، وقليل من أشجار النبق.

قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ سبأ: ١٦.

ب- في الآخرة:

لم يذكر النبات فى ألوان النعيم فى الآخرة بهذا التفصيل الذى ذكر به فى الدنيا، وإنما يغلب عليه الإيجاز، وغالبا ما يكون مقتصرا على ذكر الفاكهة التى تشمل جنس ما يتفكه به من ثمار. كقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ۝ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ يس: ٥٥ – ٥٧.

وقوله تعالى﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الصافات: ٤١ – ٤٣

وقوله تعالى ﴿ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ ص: ٥٠ – ٥١.

وقوله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن

كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ الرحمن: ٤٦ - ٥٢.

وقوله تعالى ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ الواقعة: ٢٠.

وقد خص بعض الفاكهة بالذكر فى بعض الآيات، كالنخل والرمان فى قوله تعالى ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ الرحمن: ٦٨.

كما ذكر شجر النبق الذى نزع شوكه، وشجر الطلح وهو الموز فى قوله تعالى ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ الواقعة: ٢٧ - ٣٣.

ثم قال بعد ذلك ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ (٣٢-٣٣).

وذكر فى سورة النبأ الحدائق والأعناب فقال تعالى ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴾ النبأ: ٣١ - ٣٢.

وأحيانا تذكر الثمرة أو الثمرات، وتشمل أيضا كل أنواع الفاكهة فذكر الله تعالى وهو يبين ألوان النعيم فى الآخرة، أن أصحاب الجنة كلما قدم لهم لون من ألوان الثمر، رأوه شبيها بما قدم لهم من قبل، ولكن عندما يذوقونه يجدون له طعما آخر أحلى وألذ، فقد أعطاهم الله هذه الثمار متشابهة.

قا لتعالى ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢٥.

وكذلك ذكر الله فى نعيم أهل الجنة، بعد أن ذكر أنهار الماء العذب، واللبن والخمر والعسل، أن لهم فى الجنة من كل الثمرات ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ محمد: ١٥.

وفى نعيم أهل الجنة ذكر الله الريحان والكافور والزنجبيل، فأما الريحان وهو نبات طيب الرائحة يتخذ للزينة وللشم، فقد ورد فى جزاء المقربين من الله، حيث قال تعالى ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ الواقعة: ٨٨ - ٨٩.

وأما الكافور فهو شجر تتخذ منه مادة شفافة رائحتها عطرية، وقد ذكر الله أن خمر الأبرار فى الجنة يمزج به فيعطيه طعما ألذ. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ الإنسان: ٥.

والزنجبيل نبات له عروق غلاظ تضرب فى الأرض حريفة الطعم وقد ذكر الله تعالى أنه يُخلط أيضا بالخمر الذى يشربها أهل الجنة. قال تعالى ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ الإنسان: ١٧.

أنواع النبات التي ذكرت منفردة

قليلة هى هذه الأنواع، أذكر منها النخل والزيتون والشجر والسدر والخردل.

النخل:

كان للنخلة ارتباط بولادة السيدة مريم لابنها عيسى، فقد ألجأها ألم الولادة إلى جذع نخلة، ثم طلب منها جبريل أن تهز جزع النخلة التى وضعت مولودها بجانبها وسوف يتساقط عليها ثمرها الناضج الطرى الشهى الرطب. قال تعالى ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ مريم: ٢٣.

ثم قال تعالى﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ مريم: ٢٥.

والآية الأخيرة هى الآية الوحيدة التى ذكر فيها اسم ثمر النخل، هو الرطب، كما ذكر الله تهديد فرعون السحرة لما آمنوا بموسى أنه سيصلبهم فى جذوع النخل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ طه: ٧١.

وشبه الله قوم عاد، وقد انفصلت رؤوسهم عن أجسادهم بفعل الريح وتمددت أجسادهم -وكانوا طوال القامة- على الأرض بأصول النخل الملقى على الأرض بعد أن جف وييبس. فقال تعالى﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ الحاقة: ٧.

ومثلها قوله تعالى ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ القمر: ٢٠.

(ساقط على الأرض).

الزيتون:

وقد ورد الزيتون منفردا فى آية واحدة، وذلك عندما شبه الله نوره الذى يغمر السموات والأرض بمصباح فى كوة، وهذا المصباح موضوع فى زجاجة، والزجاجة شديدة اللمعان والبريق كأنها كوكب متلألئ وهذا المصباح يوقد بزيت الزيتون، وهو نوع شديد الجودة فهو مأخوذ من شجرة زيتون مباركة، موقعها ممتاز فهى بين الشرق والغرب فلا تتعرض لحر ضار، ولا برد ضار، وأما زيتها المعتصر منها فهو شديد الصفاء يكاد من شدة صفائه ينير ولو لم يتصل بالنار التى توقد المصباح.

قال تعالى﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيْتُونَةٖ لَّا شَرْقِيَّةٖ وَلَا غَرْبِيَّةٖ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٞۚ﴾ النور: ٣٥.

وهذه هى الآية الوحيدة التى صرح فيها بذكر ما يعتصر من الزيتون وهو الزيت.

الشجر:

وقد ورد ذكر الشجر أو الشجرة فى عدة آيات غير مقترنة بأنواع النبات الآخر فقد وردت فى الآيات المتصلة بعصيان آدم ربه، فقد نهاه عن الأكل من شجرة معينة، وأغراه إبليس بالأكل منها، وقد ذكرها الله بقوله ﴿ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ فى سورتى البقرة والأعراف فقال تعالى﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البقرة: ٣٥.

ومثلها تماما فى سورة الأعراف (١٩) وقوله أيضا على لسان إبليس﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ الأعراف: ٢٠.

كما وردت فى نفس السورة دون اسم الإشارة هذه فى قوله تعالى﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ

بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ الأعراف: ٢٢.

ومرة رابعة بعد اسم الإشارة تلكما ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ الأعراف: ٢٢.

وذكرت فى سورة طه مضافة إلى الخلد، فقال تعالى حكاية لقول إبليس، ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٍ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ طه: ١٢٠.

كما ورد ذكر الشجرة فى القرآن تشبيهها بالكلمة الطيبة، والكلمة الخبيثة، فالكلمة الطيبة تشبه الشجرة الطيبة ذات الأصل الثابت فى الأرض بينما تذهب فروعها عالية فى السماء، أى أن الكلمة الطيبة نتائجها طيبة وأثرها قوى، بينما شبه الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة التى استؤصلت جذورها من فوق الأرض فليس لها قرار ثابت فى الأرض، فليس لها أثر حسن ولا ثمرة نافعة. قال تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ إبراهيم: ٢٤ – ٢٥.

ثم يقول تعالى﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ إبراهيم: ٢٦.

كما ذكرت الشجرة تحديدا لموضع بدء الوحى إلى موسى عليه السلام، فهو فى بقعة مباركة من الشجرة، بجانب الوادى الأيمن من ناحية موسى ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ القصص: ٣٠.

كما ضربها الله مثلا لعدم تناهى علمه، فقد ذكر فرضا أنه لو كان كل ما فى الأرض من أشجار تحول إلى أقلام، والبحار كلها مداد لهذه الأقلام ما انتهت معلومات الله.

وقد مر ذكر الآية عند الحديث عن البحر.

كما ذكر الله أنه أنبت ليونس شجرة من يقطين، لتظله بعد خروجه من بطن الحوت، واليقطين هو القرع، قال تعالى ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ الصافات: ١٤٥ - ١٤٦.

ثم شجرة الرضوان، وهى التى بايع الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين تحتها يوم الحديبية عندما أشيع أن عثمان قُتل. بايعهم على الجهاد حتى الموت، ورضى الله عن الذين بايعوه تحت هذه الشجرة. فقال تعالى ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ الفتح: ١٨.

وأما الشجر فقد ورد فى القرآن غير مقترن بنبات آخر.

الأول هو الشجر الذى تقدح بعض فروعه ببعض فتشتعل فيه النار، وقد ذكره الله دليلا على قدرته، فهو شجر أخضر مكون من ماء وخشب ثم يخرج منه نار، فكيف تخرج منه نار ولم يطفئها الماء، ولم تحرق الخشب؟ قال تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ يس: ٨٠.

وقد أشار الله إلى ذلك فى سورة الواقعة وإن كان ذكر الشجرة بدلا من الشجر وجاءت الآية للدلالة على فضل الله على عباده، فقد يسر لهم استخراج النار من الشجر وسألهم هل هم الذين أنشأوا شجرتها التى يقتدحون النار منها؟ أو الله الذى أنشأها؟ قال تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ الواقعة: ٧١ - ٧٢.

ثم ذكر الله بعد ذلك أنه خلق لهم النار لتكون تذكرة لهم بنار جهنم، ونافعة للمسافر الذى نفد زاده، فاستعان بالشجر ينتفع به. قال تعالى ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً

وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ الواقعة: ٧٣.

ويذكر المفسرون أن الشجر الجيد فى استخراج النار منه نوعان هما : المرْخ والعفار.
ومن أمثلتهم (فى كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار).

المرة الأخرى التى ورد فيها لفظ الشجر عندما تحدث الله تعالى عن وعيد الضالين الذين لم يؤمنوا بالبعث، فقال تعالى﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾الواقعة: ٥١ - ٥٢.

ولكنه ذكرها فى سور أخرى بلفظ شجرة بالمفرد: فقال﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الصافات: ٦٢ - ٦٥.

فالله يقارن فى هذه الآيات بين ألوان النعيم الذى أعد للمؤمنين عند دخولهم الجنة، وبين ما أعد للكافرين. ثم يذكر أن شجرة الزقوم تنبت فى قعر جهنم، وأن ثمرها لبشاعته كأنه رؤوس الشياطين.

وقد سماها الله فى سورة الإسراء بالشجرة الملعونة، وذكر أنه جعلها فتنة للناس - كما كانت رؤيا الإسراء والمعراج كذلك- فقد كذبوا بالأمرين وازداد عنادهم، وقالوا عن شجرة الزقوم كيف ينبت الشجر فى النار ولا يحترق؟ قال تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ (الإسراء: ٦٠).

وقد ذكر الله أن شجرة الزقوم هى طعام كل مجرم أثيم، وأنها تتحول فى بطونهم كالزيت الذى اشتد غليانه، فتغلى فى بطونهم كالماء المتناهى الحرارة، قال تعالى﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ الدخان: ٤٣ - ٤٦

السدرة:

وهى واحدة السدر، وهو النبق، وهناك شجرة نبق مشهورة وهى سدرة المنتهى، يقول المفسرون إنها شجرة نبق عن يمين العرش لا يتجاوزها الملائكة وغيرهم. وعند هذه السدرة الجنة التى ينعم بها المتقون من عباد الله وقد ذكرها الله ليبين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صورته عند هذه السدرة. قال تعالى ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ النجم: ١٣ - ١٥.

الخردل:

والخردل نبات عشبى حريف ينبت فى الحقول، وعلى حواشى الطرق، تستعمل بزوره فى الطب، ولم يرد ذكره فى القرآن الكريم على أنه نبات، بل على أنه مقدار، أصغر مقدار كان يعرفه الناس فى هذه العصور، فحباته صغيرة جدا فذكره الله للدلالة على عدله فى حساب الناس يوم القيامة، فستنصب الموازين العادلة فى هذا اليوم، ولن تظلم نفس شيئا من أعمالها الصالحة مهما ضؤل قدره، ولو كان فى حجم حبة الخردل، فسيأتى الله به، وهو خير الحاسبين قال ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ الأنبياء: ٤٧.

كما ذكره لقمان لابنه للدلالة على إحاطة علم الله بكل شيء مهما صغر، ولو كان فى حجم حبة الخردل، حتى لو كان هذا الشيء الضئيل مخبوءًا فى صخرة، أو سابحا فى السماوات أو تائها فى الأرض يحضره الله، فالله لا يخفى عليه شيء، ولا يعجزه شيء.

قال تعالى حكاية عن لقمان ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ لقمان: ١٦.

المعادن والحلي

ذكر الله بعض المعادن فى القرآن الكريم. وهى الذهب والفضة والحديد والنحاس. كما ذكر بعض الحلى التى يتحلى بها الناس والتى تتخذ من اللؤلؤ والمرجان، وسأورد الآيات التى تناولت هذه الأشياء.

الذهب والفضة:

وهما أنفس المعادن لدى الناس، ويعتبرونهما مقياس ثراء الثرى فيهم، ولذلك اعتبرهما الله مما حُبب إلى الناس من شهوات الحياة كالنساء والبنين عندهم فى الحب والرغبة واشتهاء الأموال الكثيرة من الذهب والفضة التى تكال لكثرتها بالقناطير. قال تعالى﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ آل عمران: ١٤.

ولنفاستهما وحب الناس لهما يحرصون على اكتنازهما، ولا يعطون حق الله فيهما، وقد توعد الله كل من يفعل ذلك بعقاب من جنس فعله فهذه الأموال سيؤتى بها يوم القيامة، ويحمى عليها فى النار وتكوى بها جباه هؤلاء المكتنزين، وجنوبهم وظهورهم، ثم يقال لهم زيادة فى عذابهم، هذا هو الذى كنزتموه حبا فيه أصبح وسيلة لعذابكم. قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ التوبة: ٣٤ - ٣٥.

ولكن هذين المعدنين لا قيمة لهما عند الله، فى جنب العمل الصالح والاستقامة وقد بلغا من هوان المنزلة فى الدنيا عند الله، أن لا يضن بهما على الكافر ولولا أن الله لا يريد أن يكون الناس كلهم كافرين، لبذل الذهب والفضة لكل كافر فجعل سقوف بيوتهم من فضة، وجهزها بكل ما يتيحه المال من رفاهية، فكانت لهم سلالم من فضة يرتقون عليها إلى السطح، وأبواب بيوتهم من فضة ولهم سرر كذلك يتكئون عليها، ولهم الذهب فى كل مكان حولهم، ولكن الله لم يفعل ذلك، كى لا يكفر الناس جميعا طمعا فى الفضة والذهب.

قال تعالى ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الزخرف: ٣٣ - ٣٥

وكان فرعون موسى يقيس أقدار الناس بالذهب، فهو يكذب نبوة موسى لأنه لم يجئ إليه، وقد تحلى معصماه بأسورة من ذهب يلقيها الله إليه، قال الله تعالى حكاية لقوله ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ الزخرف: ٥٣ ومثل ذلك فعله المشركون مع الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ فى هذه الدنيا، ولكن عندما يشاهد الكافر عذاب الآخرة يتمنى لو افتدى نفسه بملء الأرض ذهبا لو قبل الله منه ذلك. ولكن الله لن يقبل منه. قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ آل عمران: ٩١.

ولكن هذان المعدنان النفيسان سيكونان من وسائل نعيم المتقين فى الآخرة، فسوف يُحَلَّوْنَ فى الجنة بأساور من ذهب كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ الكهف: ٣٠ - ٣١.

وقد تكررت هذه العبارة فى سورة فاطر فقال تعالى﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ فاطر: ٣٣.

كما يقدم لهم الطعام والشراب فى أطباق من ذهب وأكواب من ذهب قال تعالى ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ الزخرف: ٧١.

وهناك صنف آخر من المنعمين فى الجنة، يطوف عليهم الولدان المخلدون بآنية الطعام المتخذة من الفضة، والأكواب المصنوعة من الفضة، ولكنها فضة شفافة، يرى باطنها من ظواهرها كالقوارير الزجاجية.

قال تعالى ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ الإنسان: ١٥ - ١٦ كما ذكر كذلك أنهم يلبسون أساور من فضة ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ الإنسان: ٢١.

الحديد:

وهو من أهم المعادن التى كشف الله للناس سرها، وأكثرها نفعًا لهم، فإذا كان الذهب والفضة يتخذان للحلية وللتعامل بين الناس فإن الحديد الآن يدخل فى كل مجالات الحياة، وقد ذكر الله تعالى أنه أنزل الحديد الذى تتخذ منه السيوف، والدروع فهو رمز البأس والقوة، به يقتل الأعداء، وبه أيضا يحتمى الناس من القتل، وفيه أيضا منافع للناس، لم يحددها الله فى القرآن، لأن هذه المنافع تتزايد كلما تقدم العلم وارتقى الناس، حتى لقد أصبح الحديد اليوم يدخل فى كل مجالات الحياة فى المبانى على اختلاف أنواعها واستخداماتها، وفى الجسور، وفى السكك الحديدية، وفى البواخر

والطائرات والسيارات والقطارات وقد سمى الله سورة من القرآن بالحديد جاء فيها قوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ الحديد: ٢٥.

يذكر الشيخ الشعراوى -تعقيبا على هذه الآية أنه فى أحد مؤتمرات الإعجاز العلمى للقرآن الكريم قال الدكتور أستروخ من أشهر علماء وكالة ناسا الأمريكية للفضاء: لقد أجرينا أبحاثا كثيرة على معادن الأرض، وأبحاثا معملية، ولكن المعدن الوحيد الذى يحير العلماء هو الحديد. فذرات الحديد لها تكوين مميز، إن الإلكترونات والنيترونات لكى تتحد محتاجة إلى طاقة هائلة تبلغ أربع مرات مجموعة الطاقة الموجودة فى مجموعتنا الشمسية، فلذلك لا يمكن أن يكون الحديد قد تكون على الأرض ولابد أنه عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكوَّن فيها. فلما ترجموا له معنى الآية الكريمة ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ الحديد: ٢٥ قال إن هذا الكلام لا يمكن أن يكون من كلام البشر.

وكانت معجزة داوود عليه السلام أن الله ألان له الحديد، وعلمه صناعة الدروع من الحديد، وبين له صفة الدروع المحكمة فهى لابد أن تكون تامة تستر جسم لابسها، وأن تكون حلقاتها ملائمة ومقدرة تقديرا جيدا فلا تكون واسعة فتنفذ منها السيوف، ولا ضيقة فتعوق لابسها، هذه المعانى وردت فى سورتين: ففى سورة الأنبياء يذكر الله تعليمه إياه صناعة الدروع لتحمى الناس من قتال بعضهم البعض، فعلى الناس أن يشكروا من أجل ذلك ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ الأنبياء: ٨٠.

وفى سورة سبأ يذكر الله أنه ألان الحديد لداوود، بمعنى أنه ألهمه طريقة تسخينه لدرجة يمكن إلانته فيها، وتطويعه لما يريد صنعه وطلب منه أن يعمل الدروع

السابغة، ذوات الحلقات المناسبة، قال تعالى﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ سبأ: ١٠ – ١١.

وقد اعتبر الله الحديد من أقوى الأشياء وأمتنها، فقد طلب من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر الكافرين المنكرين لأن يعيدهم الله أحياء بعد موتهم أنهم لو كانوا من حجارة أو حديد أو غير ذلك فسيعيدهم الله بعد فنائهم أحياء﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ الإسراء: ٥٠ – ٥١.

وعندما طلب القوم المستضعفون من ذى القرنين أن يبنى لهم سدا يحميهم من يأجوج ومأجوج طلب منهم أن يأتوه بقطع من الحديد ليكون منها السد. قال تعالى حكاية لما قاله ذو القرنين ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ الكهف: ٩٥ – ٩٦.

وزبر الحديد قطع. وكما أن الحديد يستعمل أيضا فى الدنيا يستعمل أيضا فى الآخرة فى صورة مقامع جمع مقعمة وهى عصا ضخمة من حديد تضرب بها رؤوس المعذَّبين ليُردوا إلى النار كلما أرادوا أن يخرجوا من لهيبها الذى ملؤهم غما.

﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ الحج: ٢١ – ٢٢.

النحاس:

ذكر الله النحاس بلفظه ولكن لم يرد به المعدن المعروف، بل أراد به الدخان وهو من معانى النحاس، وذلك عندما تحدث عن أن الإنس والجن لا يمكنهم الخروج من آقطار السموات والأرض، أنهم لو حاولوا ذلك لأرسل الله نارا ملتهبة خالية من الدخان، ونارا أخرى مختلطة بالدخان، قال تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ الرحمن: ٣٣ - ٣٥.

على أن بعض المفسرين فسر الآية على أن المراد بالنحاس هو المعدن المعروف وأنه يذاب ويصب فوق رؤوسهم وهذا المعنى هو الأظهر[١].

كما ذكر الله النحاس المذاب ولفظه (القِطْر) فى سورتين.

ففى سورة الكهف فى قصة ذى القرنين وبنائه السد بعد أن وضع قطع الحديد التى طلبها من القوم المستضعفين، وساوى بين الجبلين اللذيْن أقام بينهما السد، حتى بلغ السد ارتفاع الجبلين، طلب منهم أن ينفخوا فى النار التى وضعها بين الحديد، فلما التهب الحديد كله وتحول إلى نار طلب منهم أن يحضروا له نحاسا ويذيبوه حتى يتحول إلى سائل، فلما تم ذلك أفرغه على السد ليزيد من تماسكه.

قال تعالى {حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} الكهف (٩٦).

وذكر الله أن من معجزات سليمان عليه السلام أنه أسال له عينا من النحاس المذاب يستخدمها فيما يشاء ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ (سبأ: ١٢).

---

(١) انظر صفوة التفاسير.

الحلي

وقد ذكر الله تعالى منها اللؤلؤ والمرجان والياقوت.

اللؤلؤ والمرجان:

وهما كائنان بحريان فاللؤلؤ يتكون من الأصداف من رواسب أو جوامد صلبة لماعة مستديرة فى بعض الحيوانات المائية من الرخويات.

والمرجان حيوان بحرى يعيش فى مجموعات كبيرة، ويكوِّن ما يعرف بالشعب المرجانية، ويستخرج من البحر وتتخذ منه الحلى ويكثر فى البحر الأحمر.

وقد ذكرهما الله معا بصريح اللفظ فى آية واحدة، وهو يتحدث عن مرج البحرين فى سورة الرحمن فقال تعالى ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ الرحمن: ٢٢.

كما ذكرهما تحت لفظ شامل يشملهما ويشمل غيرهما وهو لفظ الحلية وقد عرفنا أنه يقصد بهذا اللفظ اللؤلؤ والمرجان، لأنه ذكر أن هذه الحلية تستخرج من البحر فقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ فاطر: ١٢.

وأما اللؤلؤ وحده فقد ذكر فى عدة آيات ولكنها جاءت كلها متحدثة عن نعيم الجنة، ففى سورة الطور يشبه الله الغلمان الذين يخدمون أهل الجنة فى جمالهم ونضارتهم، باللؤلؤ المحفوظ الذى لم يتعرض للعوامل الجوية، ولم تختلط به أية شوائب. قال تعالى ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ الطور: ٢٤.

وفى سورة الواقعة يشبه الحور العين نفس التشبيه السابق ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ الواقعة: ٢٢ - ٢٣.

كما يشبه الغلمان مرة أخرى فى طوافهم للخدمة باللؤلؤ المنثور ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ الإنسان: ١٩.

كما يذكر الله أن اللؤلؤ حلى أهل الجنة فى آيتين: الأولى فى سورة الحج فى قوله تعالى ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ الحج: ٢٣.

ونفس هذه العبارة تتكرر فى سورة فاطر الآية (٣٣).

وأما المرجان فذكر مرة واحدة مع الياقوت فى تشبيه نساء الجنة، فالله يشبههن فى جمالهن، ونضرة ألوانهن المشرَبة بالحمرة بالياقوت والمرجان، والياقوت هو حجر كريم شفاف يميل إلى الحمرة، وهناك أنواع تميل إلى الزرقة والصفرة، ولكن المراد هنا ذو اللون الأحمر لاقترانه بالمرجان.

قال تعالى ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ الرحمن: ٥٦ - ٥٨

ولم يذكر الياقوت فى غير هذه الآية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع

الكتاب	المؤلف
١ – تفسير الطبرى.	الطبرى
٢ – تفسير الفخر الرازى.	فخر الدين الرازى
٣ – تفسير القرطبى.	القرطبى
٤ – تفسير الجلالين.	جلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى
٥ – فى ظلال القرآن.	سيد قطب
٦ – صفوة التفاسير.	محمد على الصابونى
٧ – الإسلام يتحدى.	وحيد الدين خان
٨ – الأدلة المادية على وجود الله	الشيخ الشعراوى
٩ – الكون بين العلم والدين.	د. جمال الدين الفندى.
١٠ – الدواء والغذاء فى القرآن الكريم.	د. جمال الدين مهران، د. عبدالعظيم حفنى


الحمد لله